

حتمية الثالوث في اللَّه

(١)



الجواهر العليا تشهد لثالوث اللَّه

القمص
صليب حكيم





كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس
بالحضرة

حتمية الثالوث في اللَّه (١)

الجواهر العليا تشهد لثالوث اللَّه

القمص
صليب حكيم

اسم الكتاب : الجواهر العليا تشهد لثالوث اللّه

المؤلف : القمص صليب حكيم

الناشر : كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس بالحضرة - الإسكندرية

فصل ألوان وطباعة:

مطبعة دير الشهيد العظيم مارمينا العجائبي بمريوط

موبايل: ٠١٢٢١٥٢٨٥٦ & تليفاكس: ٠٣٤٥٩٦٤٥٢

رقم الإيداع : ٢٠١٠/١٤٥٠٠

الترقيم الدولي : I.S.B.N.: 977 - 5985 - 15 - 3

✠

بِاسم الآب والابن والروح القدس، الإله الواحد. آمين.



قداسة البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٧



تنبيه

نوجِّه نظر القارئ العزيز إلى أننا قد استخدمنا أسلوب الاستدلال العقلي للوصول إلى الحقائق اللاهوتية، إلاَّ أن الحقائق كلها مُستقاة من إعلانات الوحي الإلهي؛ لأن موضوع بحثنا عقيدي إيماني وليس موضوعاً عقلياً بحتاً، وإن كان هذا لا يمنع أن يرحب العقل باستيعاب الأمور الإيمانية استيعاباً مقنعاً كلما توفر له ذلك؛ لأنه ما أجمل أن يتقوّى القلب بيقين العقل فيزداد حُبّاً لخالقه ورسوخاً في الإيمان به وبإعلاناته ومواعيده.

وأمر آخر هو أنه قد تفاجئ القارئ عبارات يستبعد في البداية ما تنسبه لجوهر الله من حقائق، ولكنه سيجد بعدها مباشرة الإيضاح المناسب. فمن ثم لا داعي للقلق مُسبقاً.

أمر ثالث وهو أن الانتقال من الجواهر التي تقرِّب لنا جوهر الله إلى جوهر الله ذاته، يقتضي تكرار بعض العبارات. فالمرجو أن يُنظر إلى هذا التكرار على أنه واجب لاستكمال المعنى.

أمر رابع هو أن فكرة هذا الكتاب تنطلق من حقيقة أن الله خلقنا على صورته ومثاله كما يقول الوحي الإلهي "فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقهُ. ذكراً وأنثى خلقهم" (تك١: ٢٧).

أخيراً نتركك للقراءة بتأمُّلٍ وتأنٍّ مُحاطاً برعاية الله.

مقدمة

الله واحد:

إن الإيمان بالإله الواحد هو الحقيقة المُطلَقة التي يقبلها العقل ولا يرضى عنها بديلاً، لأن تتبع العقل للموجودات ينتهي به إلى موجود أول هو أصل كل هذه الموجودات وعلّة الوجود كله. وتأمّله في حركة عناصر الكون وقوى الطبيعة يقوده إلى سيد واحد أوحد يُهيمن عليها، ورأسُ واحد تُسيِّر حركتها.

والإنسان أمامه جسده الذي وإن كان له أجهزة وأعضاء كثيرة لكن تقوده رأس واحدة. وأمامه السُّفن العظيمة التي تعبُر البحار، تُحرِّك دفّتها يد ربّان واحد. كذلك أُمم العالم مهما عظمت الدولة واتسعت يكون على رأسها سيّد واحد.

كما أن الإنسان في ولائه وخضوعه لله يصعب عليه أن يكون له إله آخر مع الله؛ لأنه هل يخضع ويسجد للواحد أم يخضع ويسجد للآخر !

هذا من جهة نظر العقل الإنساني في عدم قبوله الإيمان إلاّ بإله واحد لا آخر معه.

أمّا من وجهة نظر الله نفسه فهو لا يقبل معه شريكاً كما قال لموسى: "اعلم اليوم وَرَدِّدْ في قلبك أن الرب هو الإله في السماء من فوق، وعلى الأرض من أسفل. ليس سواه" (تث٤: ٣٩) وكما قال على لسان إشعياء: "أنا الرب وليس آخر. لا إله سواي" (إش٤٥: ٥) وكما قال السيد المسيح: "إن أوَّل كُل الوصايا هى: اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا ربٌّ واحدٌ" (مر١٢: ٢٩).

بل إن الله يحذّر شعبه من أن يجعل له إلهاً آخر. كما قال لموسى: "أنا الرب إلهك ... لا يَكُن لك آلهةٌ أُخرى أمامي" (خر٢٠: ٢،٣). وكما قال في موضع آخر: "وقطع الرّبّ معهم عهداً وأمرهم قائلاً: لا تتَّقوا آلهةً أُخرى، ولا تسجدوا لها ولا تعبُدوها" (٢مل١٧: ٣٥). وكما قال على فم إيليا النبي: "حتى متى تَعرجون بين الفرقتين؟ إن كان الرّبّ هو الله فاتَّبعوه، وإن كان البعل فاتبعوهُ" (١مل١٨: ٢١)، وكما قال السيّد المسيح له المجد: "لا يقدر أحدٌ أن يخدم سيِّديْن؛ لأنه إمّا أن يُبغض الواحد ويُحب الآخر، أو يُلازم الواحد ويَحتقر الآخر" (مت٦: ٢٤).

إذاً وحدانية الله وتفرُّده من جهة المنطق العقلي والإعلان الإلهي معاً أمرٌ لا جدال فيه. ومنه تثبت الحقيقة أن الله واحد في جوهره وطبيعته وذاته.

الله الواحد هو البداية في معرفة الله: حقيقة أن الله واحد أحد هي الأساس الذي ينبني عليه الإيمان بالله، وهذه قضية لا تحتاج إلى مناقشة أو جدال؛ لأن هذا هو الإيمان الذي تشترك فيه جميع الأمم التي تؤمن بالله الروحي خالق السماء والأرض؛ ولكن القضية هي في مدى معرفة قوام وكيان هذا الإله الواحد؛ لأن هذه المعرفة هي التي نجد التفاوت فيها بين البشر.

فهناك مَنْ يعرف الله معرفة سطحية أو لفظية؛ كأن يعتقد بوجود إله للعالم يستحق العبادة كقوة خفية غير منظورة، أو كأن يعتقد بوجود إله يتقوّم كيانه في لفظ الألوهية، وفي هذا اللّفظ تنحصر عبادته وتقديسه.

وهناك من يعرف الله معرفة أعمق، **أولاً** بالعقل الذي وهبه الله للبشر لإدراكه وتعقله، وذلك بتأمُّل جواهر الموجودات في خليقته التي هو بارئها

وصانعها بصفة عامة، وجوهر الإنسان بصفة خاصة، ذلك الذي جعله على رأس هذه الخليقة. **وثانياً** من الوحي الإلهي الذي جعله الله وسيلة للإعـــلان عن ذاته وإرادته للبشر.

وهذه المعرفة الأعمق هى المعرفة المُتقدِّمة بالله. التي فيها تتكشّف طبيعة الله وكيانه، فيطمئن الإنسان في صلته بإله يعرفه وينال بركة عطايا معرفته.

وتتمايز المعرفة العميقة عن المعرفة السطحية الأولية كما يتمايز الشخص المُتعلّم عن غير المُتعلّم. فغير المُتعلّم لا يعرف عن الهواء مثلاً أكثر من أنه هواء وأنه هواء واحد ولا يعرف عن الماء أكثر من أنه ماء وأنه ماء واحـــد. أمّـــا المُتعلّم فيعرف أن الماء الواحد يتقوّم كيانه مـــن ذرّتـــيْن أيـــدروجين وذرة أوكسجين وأن الهواء الواحد يتقوّم كيانـــه مـــن عـــدة غـــازات مختلفـــة كالأيدروجين والأوكسجين والنيتروجين وثاني أكسيد الكربـــون والهليـــوم وغيرها.

وبهذا يكون المُتعلّم أكثر دراية ومعرفة بقوام الماء وكيانه وقوام الهـــواء وكيانه ومن ثم تزداد استفادته منهما أكثر.

إذاً معرفة الماء والهواء في وحدانيتهما المُطلَقة هى معرفة غـــير المُـــتعلّم الساذج. وهى معرفة أوليّة سطحيّة. ومعرفة الماء والهواء بالكثرة أو بتعـــدُّد العناصر الموجودة في داخل كيانهما هى معرفة المُتعلّم الدارس المُتعمِّق وهـــى معرفة مُتقدِّمة.

هكذا معرفة الله الواحد في ذاته المجرّدة وإن كانت هى الأساس، ولكنها معرفة بدائية ساذجة؛ لأنها معرفة أوليّة بالله. أمّا معرفة الله فيما تتقوّم به ذاته ويتحدّد به كيانه وطبيعته فهى المعرفة المُتقدِّمة الناضجة؛ لأنها معرفة مُتعمِّقـــة بالله.

وإن كان لا يصحّ تقهقر البشريّة إلى الوراء بإنكارها ما وصل إليه العلم من معرفة باكتشاف جوهر وكيان كل من الماء والهواء وما ترتب على هذه المعرفة من الفوائد الجمّة، هكذا إذا كان الله قد أنار معرفة الإنسان بكشف جوهر وكيان لاهوته وما تضمّنه هذا الكشف من خير أبدي للبشرية، فلا يصح أن ينكر العالم معرفة ما كشفه الله عن ذاته حتى لا يخسر العالم عطايا هذه المعرفة الإلهية.

والتدرُّج في معرفة الله من معرفة أوليّة كليّة إلى معرفة مُتقدِّمة تفصيليّة، يتماشى مع طبيعة الإدراك عند الإنسان الذي عندما ينظر إلى شيء في البداية فإنه يراه في كُلّيته كوحدة واحدة لها كيان قائم في الواقع، وهذه هى النظرة الأولية الاستطلاعية للشيء، ثم يبدأ بعد ذلك في التعرُّف على هذا الشيء في جزئياته وتفاصيله، فيتعرّف على قوامه وبُنيان كيانه.

إذاً، معرفة الله الواحد هى معرفة النظرة الكليّة العامة، ترى الله جوهراً وذاتاً في عمومها وشمولها ووحدتها المُطلَقة. يلي ذلك بالضرورة تكملة البناء الإيماني لمعرفة الله، وتكون بنظرة أكثر فَحصاً تتعرّف على كيان ذات الله الواحد وقوام هذا الكيان.

فالنظرة الكليّة العامة هى الأساس، وهى تقدِّم لنا الإيمان بوحدانية الله المُطلَقة التي تعني **أمريْن:**

أولهما: أن الله واحد في ذاته وطبيعته وجوهره ولا يمكن أن تتعدّد ذاته.

والأمر الثاني: هو أن هذا الإله الواحد في ذاته لا يوجد إله آخر بجواره. فهو خالق الوجود وحاكم الكون وحده، هو إله واحد لا أكثر، الله واحد

لا شريك له، ولا يوجد أكثر من إله لهذا العالم. فهو الإله الوحيد (يه٥ ٢)، وهو الإله الحقيقي وحده (يو١٧: ٣).

أما النظرة التالية الفاحصة فهي تكشف لنا أن هذا الإله الواحد الذي لا شريك له، لا يمكن أن تكون ذاته ذاتاً فارغة أو صمّاء بل لابد أن يكون لها كيان تتقوّم به، وكيان ذاته بدوره يؤكّد فاعليته كخالق للكون، ومنبع للوجود، ومبدأ أو علّة للإنسان الذي هو على قمّة هذا الوجود.

الطريق لمعرفة كيان الله: ولكي نبلغ معرفة كيان ذات الله لابد لنا من تحديد جوهر ذاته في ما إذا كان روحاً أو مادة. ولا يمكن أن يكون جوهر الله مادياً؛ لأن الجوهر المادي محسوس ومنظور، ومحدود في حيّز، وقابل للتحلّل والتغيُّر، كما أن المادة لا تتعقّل الأشياء، وكل هذه تتناقض مع ما يجب أن يوصف به الإله.

إذاً جوهر الله بالضرورة روحي ولا نستطيع أن نراه أو نلمسه أو نسمعه أو نحسه؛ لأن وسائل الإدراك الحسي هذه هي طريق معرفة الطبائع المادية وحدها، ولكون جوهر الله روحياً فلا يخضع للإدراك الحسي. ويقرّر الوحي الإلهي هذه الحقيقة "الله لم يَرَهُ أحدٌ قطّ ... ولم يَرَهُ أحدٌ من الناس ولا يقدرُ أن يَرَاهُ" (يو١: ١٨، ١تي٦: ١٦). لذلك لكي نتعرّف عليه فوسيلتنا هي العقل، والعقل يعتمد على الإدراك الحسي في التعرُّف على المحسوسات. أمّا في الأمور الكليّة والمجرّدة فإنه يستخدم منهج الاستدلال النظري الذي يتدرّج فيه من الجزئي إلى الكلّي، ومن المحسوس إلى المجرّد أو اللامحسوس. فلكي نعرف الله نلجأ إلى الاستدلال عليه من جواهر أخرى تقع تحت معرفة العقل ويمكن أن تُقرّبنا إلى الجوهر الإلهي فنصعد منها إليه.

وفي رحلتنا مع الوجود والتأمُّل في جواهر الموجودات، إذا أردنا أن نبلغ أسمى ما نتصوّره من جواهر تكون من نوع الجوهر الإلهي. فلا نجد أمامنا أسمى من جوهر العقل تاج الإنسانية، وجوهر النور تاج العالم الطبيعي، وجوهر الروح تاج الحياة للأحياء الخالدة سواء الذين في السماء أو الذين على الأرض. إننا لا نجد أمامنا أسمى من هذه الجواهر أي العقل والنور والروح؛ جواهر الوجود العليا، رؤوس الوجود وتيجان الخليقة والتي ينسبها الله إلى ذاته، ويمكن أن تكون من جنس جوهره وتُقرِّبنا إليه، لذلك نحتاج للتعرُّف على أخصّ ما تتميّز به في طبيعتها أو مادتها أولاً ثم في صورتها أو كيانها ثانياً.

وتبدو هذه الجواهر بسيطة ومُنفردة في ذاتها. لذلك هي أقرب ما يوصلنا إلى الله الواحد الفرد. ولكن مع تفرُّدها هذا ومع سموِّها، نلاحظ أنها ليست جواهر فارغة خاوية، وليست جامدة صمّاء، بل هي جواهر ممتلئة فاعلة مُتحرِّكة، أي مع وحدانيّتها في الذات تحوي كثرة تُعطي قواماً وكياناً وصورة لذاتها !

فيا تُرى ما هذه الكثرة التي تحويها الذات الواحدة لمثل هذه الجواهر لتعطيها قواماً وكياناً ؟

الثالوث يقوّم الذات ويعطيها كياناً: إن أي بناء لكي يقف ثابتاً راسخاً لابد له من دُعامات تعمل على رسوخه وثباته. ولو تصوّرنا بُرجاً شامخاً يقوم على قاعدة، فإن القاعدة المُثلثة أكثر رسوخاً وثباتاً من القاعدة الأحادية أو الثنائية. لذلك فإن ما يدعم الكيان أو الجوهر الواحد في شموخه هو الكيان الثالوثي. وإذ ليس أمامنا من جواهر شامخة على قمّة هذا الوجود

مثل جواهر العقل والنور والروح، فإننا نحتاج إلى التأمُّل في هذه الجواهر لكي نتحقّق من وحدانية ذاقما وثالوث كيالها وقوامها بحيث، وهى ذات واحــدة لكن الثالوث يفرض ذاته على كيالها وقوامها. وحيث أن هذه الجواهر كما سبق وذكرنا أقرب ما يكون إلى جوهر الله، ولكن ليس علــى مســتواها كمخلوقات بل على مستوى ما تشير أو ترمز إليه في جوهر الله. فإننا نخلص إلى أن جوهر الله بالضرورة يكون واحداً في ذاته، وثالوثاً في كيانه وقوامــه. وهذا ما سنحاول في الصفحات التالية بيانه وتوضيحه.

الفصل الأول

الطريق إلى إدراك اللَّه

الله كائن حقيقي وموجود بالحقيقة، والعقل في محدوديّته يعجز عن إدراكه دون صورة له ومادة؛ لأن هذه هي حدود إمكانيات العقل التي خلقه الله بها لإدراك الموجودات والتعرُّف عليها.

الصورة والمادة: إن كل كائن وكل موجود إنساناً كان أو حيواناً أو شجرة لابد أن له صورة وله مادة.

والصورة هي الهيئة أو الشكل الذي يبدو فيه هذا الكائن، وهو الوجه المُعلَن والظاهر أمام الإنسان الذي يمكن أن يدرك عليه الشيء. والمادة هي الجوهر الذي تتشكّل منه صورته ومادته حتى الغازات والسوائل.

وخارجاً عن هذه الحدود في الإدراك أي حدود المادة والصورة يصبح الله أو أي كائن آخر أمام العقل مُجرّد فكرة، أو خيالاً، أو تصوّراً، أو يصبح الله كائناً هلاميّاً ليست له شخصية أو ذاتية أو كيان قائم بذاته. بل إن مُجرّد تصوّره أو تخيّله أو التفكير فيه يصبح أمراً مستحيلاً على العقل. أو يصبح الله خواء أو عَدماً يتخبّط العقل إزاءه في متاهات الظلام دون أن يصل حتى إلى مُجرّد التحقُّق من وجوده.

ويستحيل أن يكون الله فكراً أو تصوّراً أو هلاماً ليس له كيان، أو خواءً في حُكم العَدم، ولكن بالضرورة هو ذات لها كيان، ولها وجود حقيقي يمكن أن يُدركه العقل.

إدراك الله: ولكن كيف يدرك العقلُ الله تحت أعراض الصورة والمادة وهو غير منظور ويعلو على الصورة والمادة ؟ هذا من جهة. ومن جهة أخرى كيف يُدرك العقلُ الله بعيداً عن الصورة والمادة، وقد سبق واتضح أن العقل لا يقدر أن يتعرّف على الله إلاّ في حدود الإمكانيات التي وهبه إيّاها للإدراك والتعرُّف على الموجودات، أي من خلال الصورة والمادة ؟

إذاً تبقى المشكلة قائمة ولا يقدر أن يحلّها إلاّ صاحبها وهو الله نفسه تبارَك اسمه. لذلك إذا أراد هو أن يكشف عن ذاته للإنسان لكيْ يتعرّف عليه أو يدركه بعقله، فلابد أن يكشف له طريق معرفته في حدود هذه الإمكانيات، أي من خلال أنه كائن ذو ذات لها صورة ومادة. وقد تستغرب في البداية لهذه المقولة. ولكن الله لعظم محبّته للإنسان ولعجيب اتضاعه معه أعلن له فعلاً - جلّت قدرته - أنه ذات لها صورة ومادة.

وإن كانت حالات المادة هي: إمّا صلبة أو سائلة أو غازية، إلاّ أن الله فوق كل هذه الحالات؛ لأنه مُترفِّع عن المادة المحسوسة والصورة المنظورة.

المقصود بالصورة والمادة في إدراك الله: وقبل أن نسترسل في ما أعلنه الله لنا عن ذاته وصورته ومادته (أي جوهره) نستدرك فنقول إنه يجب ألاّ نستغرب من اصطلاح الصورة والمادة في إدراك الله؛ لأن الأمر الذي أعطاه الله قديماً للإنسان "لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة ما ... لا تسجد لهنَّ ولا تعبُدهُنَّ" (خر ٢٠: ٤)، يقصد به الصورة الحسيّة المادية، ولكن اصطلاح الصورة والمادة في موضوعنا هنا نقصده بمعنى آخر بعيداً عن كل ما هو مادي أو محسوس.

إعلان الله عن ذاته وصورتها ومادتها (أي جوهرها):

ذات الله: لقد أعلن الله للإنسان أن له ـ تبارَك وتعالى ـ ذاتاً وله كينونة، وذلك عندما أرسل موسى لإخراج بني إسرائيل من أرض مصر "قال موسى لله: ها أنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم: إله آبائكم أرسلني إليكم. فإذا قالوا لي: ما اسمه (الذي يشير إلى شخصه أو لاهوته)، فماذا أقول لهم؟ ... قال الله لموسى: هكذا تقول لبني إسرائيل: يهوه إله آبائكم ... أرسلني إليكم. هذا اسمي إلى الأبد" (خر٣: ١٣– ١٥). ويهوه يعني الذي كان والذي أعلن ذاته وصفاته. ويقول قاموس الكتاب المقدس: إن "يهوه" اسم من أسماء الله الذي يمنع من جَعْل الله فكرة أو تصوّراً، ويمنع من جَعْله وجوداً يتلاشى فيه كل ما في الوجود. فاسم يهوه وما يعنيه يجعل الله إلهاً مُعيّناً مُعلَناً يستطيع الإنسان أن يدعوه بألفاظ وتعابير واضحة. ويقول أيضاً إن اسم يهوه لِيُثْبتُ بجلاء وجلال وجود الله "أهيه الذي أهيه"، ومعناها يكون الذي يكون، أي الكائن بذاته الذي فيه كل الكفاية الذاتية والدائم الحياة والذي لا يتغيّر. ولكن ليس بمعنى أنه ساكن أو مُستقرّ في ذاته بل بمعنى أنه يعمل ويؤثر. فالله موجود ليعمل ويؤثر، لِيُعلِن ذاته بل ويُنفِّذ إرادته، ويرشد شعبه.

ويقول المناطقة إن كل اسم له مفهوم (أي معنى) وله ما صَدَق (أي ذات موجودة يصدق أو يُطلق عليها هذا الاسم). إذاً إعلان الله لموسى هو إعلان عن ذاته ووجوده كحقيقة قائمة بالفعل.

صورتها: وكما أعلن الله أن له ذاتاً أعلن أيضاً أن ذاته لها صورة، وذلك فيما يذكره الوحي الإلهي بقوله: "قال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا"، ثم يكمل، "فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه.

ذكراً وأنثى خلقهم" (تك١: ٢٦، ٢٧). والله بالطبع ليس له جسم مثل الإنسان، وليس هو ذكراً ولا أنثى. إذاً ما قصده بخلقته للإنسان على صورته هو خلقة الجانب الروحي فيه. فإذا كان الإنسان جسداً وروحاً، فيكون قصد الله هو أن يخلق الإنسان روحاً أو كياناً تكون صفاته الروحيّة على شبه روح الله وصفاته. وفعلاً قد أودع الله روحاً في الإنسان عندما نفخ في آدم نسمة حياة فصار آدم نَفساً حيّة (تك٢: ٧). وصورة هذه الروح تقوم في التعقّل والنُّطق والحياة. أمّا صفاتها فأهمها إنها روح مريدة حُرّة خالدة. وهذا ما يمكن أن نفهمه من قصد الله بتعبيره "نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا" ويقول القاموس "قيل إن الله خلق الإنسان على صورته والمقصود من ذلك بما يمكّن للبشر من صفاته الروحية".

مادتها (أو جوهرها): وقد أعلن الله للإنسان أيضاً مادة جوهره وذلك في قول السيد المسيح له المجد: "الله روح" (يو٤: ٢٤)، وفي قول بولس الرسول: "وأمّا الرّب فهو الرُّوح" (٢كو٣: ١٧)، وفي قوله أيضاً عن المسيح إنه "روح مُحيي" (١كو ١٥: ٤٥). وطبيعة الله الروحيّة تعني أنه كائن غير جسمي لأن "الرُّوح ليس له لحمٌ وعظامٌ" (لو٢٤: ٣٩). وأنه غير منظور كما يؤكّد يوحنا الإنجيلي بقوله: "الله لم يَرَهُ أحدٌ قطُّ" (يو١: ١٨) وأنه غير مادي أيضاً. ولو لم يكن الله روحاً لما أمكن أن يكون كاملاً أو لا نهائياً أو أزليّاً، أو كائناً بذاته، أو أب الأرواح، أو غير قابل للفساد ... وغيرها ممّا يتّصف به الجوهر الروحي.

يتّضح إذاً أن الله له ذات كائنة بالفعل. وطبيعته روحيّة بحتة وهذه الطبيعة الروحيّة هى جوهره أو مادته، وله صورة كذلك.

ولكي نقف على حقيقة جوهر الله الروحي وعلى حقيقة صورته نستعرض أنواع الجواهر لكي نصل منها إلى الجوهر الإلهي فنتحقّق من طبيعة جوهره ومن صورته أيضاً.

الجوهر الإلهي

الجوهر وأنواعه: جوهر الشيء هو أصل الشيء، وأصل الشيء أو جوهره قد يكون جسماً ماديّاً أو روحاً، أو أمراً معنويّاً.

وتختلف الجواهر عن بعضها في خواصها، فالجوهر المادي محدود في كيانه، مرتبط بالعالم الطبيعي، قابل للتحلّل، ومن ثم للزوال والفناء، وما هو زائل وفانٍ فهو زمني ولا يتمتّع بدوام البقاء والخلود. أمّا الجوهر الروحي فإنه يمتاز بالسموّ ولا يقبل التحلّل والفساد، ومن ثم يتمتّع بالبقاء والخلود ولا يفنى ولا يزول.

ولا يمكن أن يكون أصل الله وجوهره بطبيعة الحال جسماً ماديّاً أو جوهراً محسوساً؛ لأن الله بعيد بصفاته عن كل ما هو مادي أو محسوس. إذاً أصل الله بالضرورة جوهر روحي غير محسوس.

وليس أمامنا من جواهر روحيّة يمكن أن تقرّبنا إلى جوهر الله كما اتّضح لنا في المقدمة سوى ثلاثة هي: العقل والروح والنور، وهي أسمى جواهر في محيط إدراكنا في هذا الوجود يمكن أن يدرك العقل الإنساني الله عليها.

جوهر الله: ونعتقد أنه لا يوجد إنسان أو عقيدة على الأرض بين البشر تتّجه إلى الله غير المنظور، إلاّ وتتصوّره روحاً أو نوراً أو عقلاً. والوحي

الإلهي يؤكّد هذا التصوُّر الإنساني لله. فمن جهة أن الله روح يقـول: "الله روحٌ. والذين يسجدون له فبالرُّوح والحقّ ينبغي أن يسجدوا" (يو٤: ٢٤). ومن جهة أنه نور يقول: "الله نور وليست فيه ظلمة البتة" (١يو١: ٥). ومن جهة أنه عقل يقول: "والكلمة (أي اللوغوس أو العقل الناطق) هـو الله" (يو١: ١).

ونحن يمكننا أن ندرك الله كعقل باعتباره خالقاً للكون؛ لأن هذا الكون لا يمكن صدوره أو خلقه إلاَّ من عقل خالق مُبدع.

ويمكننا أن نتصوّر الله نوراً باعتباره مصدر الحكمة والفَهْـم والـذكاء وأصل كل معرفة وعلم ووالداً للكلمة الذي بدونه ما كان يصنع شيئاً مـن الخليقة التي على قمّتها الإنسان العاقل الناطق.

ويمكننا أن نتصوّر الله روحاً باعتباره مصدر الحياة لكل حيّ في هـذا الوجود، وبغيره ما كان وجود لكائن حي على الإطلاق في سائر الخليقة.

وإدراكنا لله كعقل ونور وروح إدراك منطقي مُترابط؛ لأن الله كخالق لابد أن يكون عقلاً. والعقل لكي يخلق لابد أن يكون نوراً؛ لأنه لا يخلـق إلاّ بالكلمة والكلمة هى نوره. وكلمة العقل لكي تخلق موجودات حيّة لابد أن تحمل حياة من منبع ولادها. إذاً لابد أن يكون العقل حيّاً كوالـد لهـا، والعقل لا يكون حيّاً إلاّ إذا كانت له روح. هذا هـو الله العقـل والنـور والرُّوح.

وليس هناك أعظم وأحقّ من هذه الجواهر الثلاثة المُتاحة للعقل البشري، أعني العقل والنور والرُّوح، التي يمكن أن نتصوّر مـن خلالهـا جـوهر الله وصورته، إذ هى أسمى ما في الوجود؛ لأنها أيضاً أسمـى مـا في الإنسـان، والإنسان أسمى خليقة الله على الأرض.

كلُّ جوهر من الثلاثة يقودنا لصورة الله: إن كل جوهر مادي أو روحي لابد وله صورة يتعيّن بها وجوده أو تصاغ فيها ذاته. وإذا كان جوهر الله لا يخرج تصوّرنا له عن كونه روحاً أو نوراً أو عقلاً. فيلزمنا أن نتعرّف على صورة الرُّوح والنور والعقل، وكلها جواهر بعيدة بالطبع عن الحس والمادة، حتى يمكننا أن نتعرّف على صورة الجوهر الإلهي.

الجواهر الروحية وإشارتها لجوهر الله: سيتضح لنا فيما بعد أنه يستحيل على العقل الإنساني أن يدرك الله ويفهمه إلاّ من خلال صورة الثالوث، طالما ينحصر إدراكه له في العقل أو النور أو الروح؛ هذه الجواهر التي سيتأكّد لنا أنها جواهر ثالوثية باليقين، وسنكتشف ثالوث كل منها عندما نتأمّل كل جوهر منها على حدة، فنستطيع حينئذ أن نستدل منه على ما يشير إليه من مفهوم جوهر الله الواحد الثالوث. وبذلك نكون قد أفدنا من نور المعرفة الذي وضعه الله أمامنا وفينا وسيلة للوصول إليه وإلى معرفته.

الفصل الثاني

اللّه العقل الأعظم

العقل الإنساني في خصائصه: ولنبدأ بتأمُّل العقل الإنساني في خصائصه، ثم في طبيعته وجوهره، حتى نصل إلى إدراك صورته. وإذ هو صورة الله أو الجزء الإلهي في الإنسان، فسنتخذه في كل خاصية منه سُلّماً نصعد به دائماً إلى العقل الإلهي؛ لأن خصائص العقل الإلهي صانع وخالق هذا الكون العظيم بكل موجوداته من العدم، تصبح قريبة إلى إدراكنا من خلال خصائص العقل الإنساني صانع وخالق الواقع الحضاري المُذهل، وإن كانت الأولى أبهى وأمجد؛ لأنها هى الأصل والحقيقة. أمَّا خصائص العقل الإنساني فهى الصورة والشَّبه.

الفكر والعمل: وعندما نعرض إلى خصائص العقل الوظيفية، نجد أن أبرز خاصية أو وظيفة للعقل هى التفكير، فالتفكير هو الذي يقود الإنسان إلى العمل، وكل أعمالنا العاقلة هى ثمرة أفكارنا، لذلك فالعقل الإنساني عندما يُفكِّر عملياً فإنه لا يفكِّر إلاَّ في ما يريد أن يقوم به من أعمال أو في ما يعمله فعلاً، أو في ما سبق وأنجزه من عمل.

أمَّا عن الله فكلّه فكر وكلّه عقل؛ لأن الوحي الإلهي يخبرنا أن لله كلمة بل الكلمة هو الله. وما دام الفكر أو الكلمة أصل العمل والله كله فكر وكله كلمة، فالله إذاً يعمل، وأقرب وأوضح دليل لعمله هو قيام هذا الوجود كله، سواء الوجود الطبيعي من الجمَاد والنبات والحيوان، أو الوجود العاقل الذي

هو الإنسان، فكله صنعة يديه. وقد عمله هو، ولا يزال يعمل فيه، وسيبقى قائماً بعمل كلمته. كما يؤكّد ذلك قول (كلمة الله) نفسه "أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل" (يو٥: ١٧)، بل ويؤكّد حتمية عمله بقوله: "ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني" (يو٩: ٤).

إلاّ أن العقل الإلهي لا يحتاج كالعقل الإنساني إلى التفكير في ماضي أعماله أو مستقبلها؛ لأن أعماله حاضر مُستمرّ، وهو لا يخضع لزمن العالم لأنه صانع الزمن، إلاّ أنه في نفس الوقت يملك الحاضر والماضي والمستقبل، كما يقول (الكلمة) ليوحنا "أنا الكائن والذي كان والذي يأتي" (رؤ١: ٨). فهو حاضر على الدوام، وهو أزلي لأنه يغط في القدم، وهو موجود في المستقبل لأنه أبدي يبقى إلى الأبد. وهكذا أعماله حاضرة على الدوام، كما هى مُرتبة في مشيئته منذ الأزل، وقد رتّبها لخير الإنسان الأبدي، لذلك هى لا تستوجب انشغال فكر الله بها في الزمن فهى أزلية أبدية.

التخطيط والترتيب والتنسيق: والعقل الإنساني قبل أن يبدأ عملاً كبيراً أو هاماً فإنه يخطّط له. لذلك من خصائصه الوظيفية التخطيط، أي وضع خطة للعمل الذي يريد إنجازه وذلك بحصر الإمكانيات وتحديد الأولويات وتقدير المدى الزمني ووضع الاحتمالات التي يمكن أن تواجه هذا العمل. والتخطيط يتبعه الترتيب أي ترتيب الجزئيات والعناصر في العمل الواحد لكي يخرج عملاً كاملاً قائماً بذاته. والترتيب يليه التنسيق وهو تنظيم الأعمال الكاملة فيما بينها حسب أهدافها وغاياتها حتى تتكامل في عمل كبير عظيم يُحقّق هدفاً أكبر وغاية أعظم تساعد ضمناً على تحقيق الغايات

الأصغر والأقل. ومن هذا العمل الكبير يصنع العقلُ الواقع الذي يحيا فيه ويتفاعل معه.

هكذا يعمل العقل الإلهي مُبدع الكون والمهندس الأعظم لهذه الخليقة. فعندما نستعرض الموجودات التي خلقها ندرك كيف خطّط لوجودها، وكيف رتّب جزئيات كل نوع فيها فخرجت مخلوقات كاملة. حيث يؤكّد الوحي الإلهي كيف أن ما خلقه الله يوماً بيوم "فإذا هو حَسنٌ جداً" (تك١: ٣١)، وكيف نسَّق بين الخلائق فأخرجت كوناً رائعاً من السماء والأرض والبحر وكل ما فيها.

ربط الفكر بالواقع: والعقل الإنساني من خصائصه ربط الفكر دائماً بالواقع، لأن الفكر الذي صنع الواقع يصبح الواقع مجاله الذي يعمل فيه. ويستوجب هذا عودة الفكر باستمرار إلى هذا الواقع ليحتك به ويختبر مدى سلامته. وعندما يتفاعل الفكر مع الواقع ويؤثّر فيه ويخلق منه شيئاً جديداً أو يضيف إليه عملاً نافعاً فإنه يكون فكراً صحيحاً، والفكر الصحيح يحقّق ذاته، ومن ثم يدعم كيان العقل ويعينه على توليد أفكار صحيحة أخرى.

ويترتب على ذلك خاصيّة أخرى للعقل الإنساني هي: استثمار الأفكار الصحيحة الناضجة بتنميتها في داخله بملكاته الخاصة، وإعادتها إلى الواقع مرة أخرى في نموها، لكي تنمو أكثر بالواقع وتطوّره إلى ما هو أفضل. فالعمل في الواقع إن كان يُنمي الفكر فالفكر أيضاً عندما يسترجعه العقل ويُنميه داخله فإنه يعود إلى الواقع مرّة أخرى ليخلق فيه عملاً جديداً.

أمَّا العقل الإلهي فلا يحتاج إلى التفاعل مع الواقع ليطوره ويرتقي به؛ لأنه عندما خلقه وضع كل الإمكانيات التي تسمح بتطويره باستغلال

الإنسان له والإفادة من النُّظم والقوانين التي أنشأه الله عليها منذ البداية. فقد وضع الله في الموجودات الجامدة والحيّة التي صنع منها هذا العالم قوانينها في ذاتها من حركة وثبات وجاذبية وحياة ونموّ وإحساس وإدراك، سواء كان عالم الفَلك من الشمس والقمر والكواكب والنجوم، أو عالم الطقس والمناخ من حرارة وبرودة ورياح وأمطار، أو عالم البحار والمحيطات وما تحويه من كائنات، أو عالم اليابس من جبال وسهول وطبقات أرض وما تحويه من معادن وعناصر، أو عالم النبات من عشب وبقل وشجر، أو عالم الطير والحيوان، ثم أخيراً الإنسان الذي وضعه على قمة تلك الموجودات. هذه الموجودات بكل أنواعها والتي تصطبغ بالتمايز الدقيق في السُّلّم التصاعدي الذي خلقها الله عليه، لها قوانينها التي تحفظ وجودها وبقاءها وهو عمل العقل الإلهي فيها، كما تركها للإنسان لكي يستثمرها ويطوِّر ما يستطيع تطويره منها ويرتقي به، ويخلق ويُبدع من عناصرها ما يقدر على إبداعه وخلقه، إذ أعطاه سُلطاناً على كل الخليقة وسخّرها له.

سلامة العقل أساسها المعرفة الصحيحة: والعقل الإنساني السليم لا يخطئ إذا توفّرت له المعرفة الصحيحة لكل البيانات والحقائق في العمل الذي ينشئه ويبنيه من جميع جوانبه. أمّا إذا قصرت معرفته، أو خُدع بمعلومات ظاهرها صحيح وباطنها خاطئ أو وقعت الاحتمالات المنتظرة من العوامل المضادة والمقاومة، وعَجَزَ الإنسان عن التغلُّب عليها. فإن هذا يضيف إلى العقل مسئولية أخرى هي إعادة تنظيم التفكير وتعديل مساره بالاستفادة من التجربة والخطأ.

أمّا العقل الإلهي فله كل العلم والمعرفة لذلك فهو لا يخطئ ولا يتعرّض للخطأ ولا أحد يخدعه. "وأحكامه حق وعادلة كلها" (مز١٩: ٩). "وكلمته مُستقيمة" (مز٣٣: ٤) لذلك لا يحتاج إلى أن يراجع أفكاره ليعدل مسارها. ولكنه خطّط لحياة الإنسان أن يستفيد من التجربة والخطأ لكي يصل إلى حياة أفضل، ولكن ليس بكماله وجهده الذاتي وحده، بل بإظهار قوّة الله فيه ليظل مُنتمياً إلى الله ومُرتبطاً به ومُعتمداً عليه. وذلك بخلاف الخلائق التي خلقها مُكتفية بذاتها لغايات مؤقّتة، ستزول هي بعدها وتزول معها غاياتها كما في عالم الجماد والنبات والحيوان.

الإعداد لمستقبل أفضل: والعقل الإنساني بطبعه ينحو إلى الخلود ودوام البقاء، لذلك يلجأ إلى وضع صورة مستقبلية يرى فيها عالماً جديداً أسعد وأفضل من العالم الحالي والحياة الحاضرة. وهذا ليس بعسير على العقل؛ لأن العقل الذي كانت له القدرة على خلق وابتكار العمل الأول هو يملك نفس القدرة على الخلق والتجديد المستمرّيْن. فملكات العقل وقدراته من إدراك وتعلُّم وتحصيل وتعرُّف وربط واستنباط واستدلال ونقد وتجريد وتأمُّل وتحليل وتركيب واسترجاع وتذكّر وتصوّر وتخيّل وابتكار، هذه الملكات والقدرات التي يعمل بها العقل وينتج بها عملاً، لا تشيخ ولا تضعف أبداً في العقل النشيط الفعّال، بل تجعله قادراً ليس فقط على حفظ وبقاء ما أنشأه وبناه من أعمال بل والارتقاء بها من درجة إلى درجة أعلى.

هكذا العقل الإلهي الجوهر الخالد ومنبع الخلود رتّب بقدرته وحكمته لمستقبل الإنسان ورسم لخلوده معه. فرتّب له أن يرتبط به بمواثيق وعهود وعلاقة شخصية مباشرة؛ لأنه خلقه أصلاً لكي يحيا معه في مجده ويمتّعه بنعيم

ملكوته في حياة أبدية خالدة. لذلك وضعه بادئ ذي بدء في فردوس وزوّده بوصية لحفظ ذاته، ولما أخطأ بغواية إبليس وإن كان لم يعفه من العقاب، لكنه عاد فحوَّل له سقطته إلى بدء قطع عهدٍ أوَّلي معه زوده فيه بالوصايا والفرائض، ورسم له صورة مستقبلية بالنبوات لحياة أفضل، فعاش الإنسان مرتبطاً بمواعيد الله منتظراً موعد تحقيق تلك الصورة الفُضلى.

وفي الزمن المُحدَّد حقّق له تلك الصورة باقترابه إليه في كلمته المُتجسِّد، وارتقى به من عهد وصيّة حرفية إلى عهد وصيّة يطلب فيها منه تنفيذ روح الوصيّة لا حرفها. ومن عهد بنوّة مواعيدها أرضية إلى عهد بنوّة مواعيدها سماوية، ودخل معه في عهد جديد ليس بتقديم مُجرّد وصايا أو فرائض له لكي يحيا بها، بل بتقديم حياته نفسها وصيّة مُعاشة لكي يحياها، وبتقديم ذاته عينها ليحيا بها إلى الأبد، ثم أودع بين يديه صورة مُستقبلية جديدة لحياة السعادة والمجد الأبدي معه في ما تركه له من وعود بما أعدّه للذين يؤمنون به، ويقبلون عهده ويصدِّقون مواعيده.

وهكذا تبدو لنا عظمة العقل الإلهي وقوّة حكمته، ومجد مشورته في عمله مع الإنسان أكثر من كافة الخلائق. هذه العظمة والحكمة ما كنا نقدر أن نصل إلى إدراكها في الله إلاّ بصعودنا من العقل الإنساني الذي هو الشبه والصورة، إلى العقل الإلهي الذي هو الأصل والحقيقة.

رؤيـة إجماليـة

وإذ قد استعرضنا خصائص العقل الإنساني ووجدنا أن التفكير هو أبرز خصائصه، وأن أفكاره الصحيحة هي التي تقوده إلى عمل نافع، وأن كل عمل إنما يقوم العقل بالتخطيط له ويرتِّب عناصره، ثم يُنسِّق بين ما اكتمل إنجازه منها. ومن مجموع الأعمال التي يقوم بها العقل يصنع الواقع الذي يحيا فيه. ويحرص العقل على ربط الفكر بالواقع لتطويره لِما هو أفضل. وقد يحتاج إلى إعادة تنظيم تفكيره مُستفيداً من التجربة والخطأ. ويتمتّع العقل بقدرة فائقة لرسم مستقبل أفضل للإنسان لحياة جديدة، في واقع جديد يجعله في نموٍّ مُطرد. ومن مجموع هذه الخصائص الوظيفية استطاع العقل أن يخلق عالماً جديداً من الحضارة والثقافة يشبع به طموح البشرية. وفي هذه كلها عرفنا العقل الإنساني في عظمته.

وعندما صعدنا من الصورة إلى المثال أي من الإنسان إلى الله، اكتشفنا خصائص العقل الإلهي بصورة أمجد وأسمى وأكمل، حيث وجدناه فكراً محضاً به عمل العالم على أحسن صورة بتخطيط وترتيب وتنسيق يفوق الوصف. ووضع له قوانينه التي تحكمه وتُبقي عليه. أمَّا عند خلقه الإنسان فقد صنعه وشكّله على صورته، وأوجد له العالم الطبيعي لحياته الزمنية. ولمَّا أفسد الإنسان صورته أعاد خلقته روحياً، لكي يعدّه ويهيئه لمشاركة مجد ملكوته الأبدي. وقد ظهر حُبّ الله ومجده وجلاله في هذه الخلقة الثانية الروحانية أكثر من الخِلقة الأولى الترابية. ولازال العالم والإنسان قائميْن بقدرة كلمة الله.

الأمر الذي يؤكِّد حقيقة جوهر الله كعقل، ومنه نستنتج أن الله عقل بالضرورة. ولا يبقى لنا بعد ذلك إلاَّ أن نتعرّف على صورة هذا العقل فننتقل من الخصائص التي أظهرت لنا هذا الجوهر إلى صورة الجوهر ذاته.

صورة العقل الإلهي

العقل الإنساني: عندما نتأمّل العقل الإنساني في طبيعته، نجده مركز التفكير ومنبعاً للفكر ومعملاً دائماً له.

العقل يلد الفكر: فالفكر يفيض منه دائماً، وقيمة العقل تكمُن في أنه طاقة هائلة للأفكار، والفكر مولود منه من البدء دون أن ينفصل عنه ولا يزال تيار الفكر يتدفّق منه بلا انقطاع أو توقّف.

الفكر أصل الفعل الإرادي: والفكر فيه المعرفة والحكمة والمشورة والتدبير، وهو الذي يوجِّه ويقود وينظِّم، ولذلك هو أصل كل فعل إرادي وكل عمل يشير به العقل.

الكلمة قالب الفكر: والفكر تُجسِّدُهُ الكلمة وتعطيه فاعليّته وقوّته وسُلطانه، فالكلمة هى القالب الذي يُصَب فيه الفكر أو هى القناة الطبيعية التي تحمل الفكر وتترجمه إلى قوة فاعلة خالقة قولاً وعملاً.

الفكر إذاً هو غذاء الكلمة أو هو الكلمة مُختبئة في داخل العقل، أو ناطق بها العقل لكي يفعل ويعمل بها.

لذلك لا يمكن قبول العقل أو تصوّره إلاّ والداً للكلمة التي هى فكرُهُ في داخله أو قوّته الناطقة التي يخلق ويصنع بها خارجاً عنه.

العقل الولود يستلزم الحياة: ولا يلد العقلُ الكلمةَ إلاّ إذا كان بطبيعة الحال عقلاً حيّاً، لأن الميت لا يلد، والحياة دائماً جوهرها الروح. إذاً فالروح بالضرورة تسري في العقل ولابد أنها تسري في الكلمة أيضاً التي ولدها. فالكلمة حيّة حتماً لأنها مولودة من عقل حي. ولو لم تكن الكلمة حيّة بروح الحياة الساري فيها من العقل ما كان لها قوّة الخلق والفعل.

ثالوث العقل: فالعقل إذاً لا يمكن تصوّره في طبيعته إلاّ عقلاً والداً للكلمة وناطقاً بها، وحيّاً بروحه الكائنة فيه وفي كلمته. هذا هو العقل الواحد في جوهره والمثلث في خواصه أو قواه الذاتية، وهو عقلنا أو قل هو كياننا الخالد وصورتنا الباقية. وهو أسمى ما يمكن أن نتصوّر الله عليه.

الصعود من العقل الإنساني إلى العقل الإلهي: وإذ نصعد من الإنسان إلى الله أو من المعلول إلى العلّة، أو من المخلوق إلى الخالق، أي من صورة العقل الإنساني إلى صورة العقل الإلهي، فيكون الله بالضرورة هو العقل الأعظم صانع الوجود وخالقه، ووالد كلمته الذي يخلق ويصنع به، وباثق روحه في كلمته الذي هو حيّ به، وتفيض منه الحياة لكل جسد. فيكون الله عقلاً وكلمة وروحاً، أي عقلاً بذاته وناطقاً بكلمته وحيّاً بروحه.

ثالوث العقل الإلهي يُعلِنه الله لنا: هذه الصورة لثالوث العقل الإلهي عبّر عنها بإيجاز مبدع القديس يوحنا في بدء إنجيله بقوله: "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله ... كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيءٌ مما كان. فيه كانت الحياة" (يو١: ١-٤).

وهنا يضع أمامنا القديس يوحنا ثالوث الله من: الله والكلمة والحياة، ولكنه بدأ بالكلمة؛ لأنه الصورة الظاهرة عن الله للبشر فجعله أصلاً للوجود، لأن به الله "العقل الأعظم" صنع الوجود كله، وبروحه الذي أودعه فيه بث الحياة في سائر الموجودات الحيّة.

ويضع البداءة للكلمة أيضاً لكي يُبيّن أزليّته مع الله، ووجوده السابق ليس فقط من قَبل تجسده، بل من قَبل بدء الزمن، ومن قَبل إنشاء العالم

فيقول: "في البدء كان الكلمة". وقد يقصد بالبدء جوهر الآب ذاته، فيكون المعنى أن الكلمة كان في الآب، لذلك يؤكّد كينونة الكلمة في الله فيقول: "والكلمة كان عند الله"، أي أن الكلمة كائن فعلاً وله وجوده الحقيقي؛ لأنه مولود من الله، ولكن وجوده غير مُنفصل عن الله؛ لأن ولادته منه ولادة روحية. إذ هى ولادة الكلمة من العقل كولادة النور من النور.

لذلك فالكلمة، وإن كان قد وُلِدَ من الله، إلاّ أنه قائم مع الله وكائن فيه. ثم يؤكّد وحدانية ذات الله مع كلمته بقوله: "وكان الكلمة الله". فالله وكلمته واحد؛ لأن الكلمة لا ينفصل عن الله حتى بالتجسُّد؛ لأنه القوة الناطقة فيه. ونحن عندما نرى ونسمع "كلمة الله" المُتجسِّد فكأننا نرى ونسمع الله ذاته؛ لأن الله لا يمكن أن يظهر لنا بذاته. لذلك هو يُعلن لنا ذاته أي إرادته وفكره من خلال كلمته، الذي هو صورته ورسم جوهره. وحينئذ الله غير المنظور يصبح منظوراً لنا في شخص كلمته. فكل من يرى الكلمة ويسمعه فكأنه رأى الله وسمعه. ومن ثم كل مَنْ يؤمن بالكلمة يؤمن بالله ذاته.

ثم يعود يوحنا إلى حقيقة وجود الكلمة في البدء مرّة أخرى فيقول: "هذا كان في البدء عند الله"، ولكن هذا البدء غير البدء الأول الذي يعني به البدء المُطلَق الذي يشير إلى أزليّة وجود الكلمة قبل كل الدهور، وقيامه في الآب ومعه منذ الأزل. أمّا هذا البدء الثاني فهو بدء الخليقة والذي يريد به أن يؤكّد حقيقة الكلمة كخالق، كما أكّده الوحي في مكان آخر بقوله: "أنا الحكمة ... الرب قناني أول طريقه، من قَبْل أعماله، مُنذُ القِدَم ... لمّا رَسَمَ أُسُس الأرض، كُنتُ عنده صانعاً" (أم ٨: ٢٢-٣٠).

ثم يأتي بعبارة جامعة مانعة تجمع وجود الخليقة كلها بالكلمة وتمنع وجود أي خليقة بدون الكلمة. فيقول: "كل شيء به كان" وهى العبارة

الجامعة التي تعني أن كل ما خلقه الله إنما خلقه بكلمته، الذي إذ هــو (أي الكلمة) يعرف مشورته (أي مشورة الآب) منذ الأزل فإنه يتمِّم مقاصده. ثم يقول: "وبغيره لم يكن شيء مما كان"، وهي العبارةِ المانعة والتي تعني أنــه بدون الكلمة ما كان وجودٌ لخليقة ما في الوجود كله. أي أن الله لا يقدر أن يخلق أو يوجد شيئاً بدون كلمته، لأنه وسيلته الوحيدة في الخلق لا كوســيلة مُنفصلة عنه كما ينشر نجار بالمنشار، بل كما يرى الجسمُ بالعين.

ثم يُعلن أن الكلمة هو مصدر الحياة أيضاً فيقول: "فيه كانت الحياة" أي الحياة مودّعة في الكلمة منذ البدء، وبه صارت لكل الكائنات الحيّــة، فهــو أصل الحياة في الوجود كله. ثم يُميّز نوع الحياة المُستمدة منه للإنسان دونــاً عن بقية الخلائق فيُبيّن أنها نور بقوله: "والحياة كانت نور الناس" لأنها حياة عاقلة ناطقة خالدة تحمل نور المعرفة والحكمة والبقاء والخلود.

هذا هو الله العقل الأعظم والد الكلمة وباثق الحياة. هذا هو ثالوث الله الذي تفرضه طبيعة العقل وتشهد له كلمة الله. أو قل هذا هو الله الواحــد الثالوث الذي أصبحت حقيقته واضحة لدينا كل الوضوح. وأمــام هــذا الوضوح يصعب على الإنسان أن يُغلق على عقله أو يحبس فَهْمه أو يتحوّل بعينه عن إعلانات الله. بل لا يصح أن يكون مُعانداً لقبول حقيقة الله الواحد الثالوث في جوهره العاقل؛ لأنه إذا لم يكن الله عقلاً فماذا يكون إذاً ؟!

وإن كان الله بالضرورة عقلاً، فلا مفر من وحدانية ذاته وثالوث كيانه من العقل والكلمة والروح؛ لأن العقل هو هكذا.

حقاً إن الأمر بعد بيانه وتفصيله يصبح واضحاً خصوصاً للعقل الــذي لا يرفض الحقيقة ولا يعاند الحق.

الفصل الثالث

اللـه النـور الحقيقي

إن النور في عالمنا هذا هو أسمى كل المخلوقات وأبهاها؛ لأنه يعلوها جميعاً ويحيط بها ويتخلّل كيانها، وهو الذي يظهرها للعيان وبدونه يصبح هذا العالم قبراً مُظلماً.

وإن كان هذا هو مجد النور وعلوّ جوهره، فلا نستغرب إن كان الله عزّ وجلّ نسب لنفسه صفة النور أو أنه نور، مع ملاحظة أن النور كجوهر الله يسمو بما لا يُقاس على النور في عالمنا هذا.

ولكن حيث أن الله نسب لنفسه أنه نور فهذا ما يقودنا إلى التأمُّل في خصائص النور لكي نرتقي من جوهره إلى جوهر الله ذاته.

النور وخصائصه:

النقاوة: يمتاز النور من الوجهة الطبيعية بالصفاء والنقاوة والله صافٍ نقي في ذاته. ونقاوة النور تشير إلى الطهارة والله قدوس، لا تفتر الخليقة غير المنظورة والمنظورة معاً عن تمجيد قداسته في كل لحظة قائلة: "قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ ربُّ الجنود. مجدُهُ مِلْءُ كل الأرض" (إش٦: ٣)، لذلك يليق به أن يكون نوراً.

الجمال: والنور أبهج ما يسعد الإنسان وأعظم ما يُبهر نظره؛ لأنه أسمى ما في الوجود. هكذا الله النور أجمل ما يمكن أن يَستعذبُ الإنسانُ النظرَ إليه؛

لأنه أبرع جمالاً من بني البشر (مز٤٥: ٢)، وأكثر ما يُشبع الإنسان، النظر بشغف إلى وجهه؛ لأنه بالبرّ ينظر الإنسان وجه الله ويشبع إذا استيقظ بشبهه[١] (مز١٧: ١٥).

وعندما تجلّى الله للإنسان بوجه يُضيء كالشمس وثياب تلمع كالنور، فحينذاك طاب للإنسان أن يُعبِّر عن سعادته بالبقاء معه حيثما هو، ويُناجيه بقوله: "ياربّ جيد أن نكون ههنا" (مت١٧: ٤).

الحُبّ: ومن طبيعة النور الانتشار وعدم الانحباس أو الانغلاق على ذاته، فهو كالحب يفيض بسخاء ولا شيء يحبسه. هكذا الله يملأ كل الكون ولا يخلو منه مكان ويفيض بحبه على كل الخليقة (يو٣: ١٦). وحُبّه مملوء بالعطاء وهو "يعطي بسخاء ولا يُعيِّر" (يع١: ٥) و"غنيّاً لجميع الذين يدعون به" (رو١٠: ١٢). والذين أخذوا منه ينجذبون إليه ليستنيروا أكثر، فكما تنجذب الفراشات بجمالها وخفّتها إلى النور الطبيعي، هكذا النفوس التي تجمّلت بالعطايا الإلهية وصارت خفيفة بالطبع الروحاني تنجذب إلى النور الإلهي فتستضيء به وتمتلئ بحبه.

عدم المُحاباة: والنور يُضيء على كل الموجودات دون تمييز أو تفضيل، وهكذا الله يشرق بنور محبّته وصلاحه على كل حيّ (مز١٤٥: ١٦)، ويغدق برحمته وعمل خلاصه على كل جنس وشعب ولغة دون تمييز أو مُحاباة (أع١٠: ٣٥)، الأمر الذي من أجله هتف داود قائلاً: "سبِّحوا الرب يا جميع الأمم، ولتباركه كافة الشعوب. لأن رحمته قد قويت علينا" (مز١١٧: ١).

---

[١] به أو بصورته.

الحق: والنور يكشف بواطن الأمور والموجودات ويظهر خفاياها ويزيل غموضها ويجعلها واضحة أمام العقل والحواس أي يظهرها على حقيقتها، لذلك هو يشير إلى الحق (أف٥: ١٣).

هكذا الله نور لأنه هو ذاته الحق (مز٣١: ٥، يو١٤: ٦) وكل طُرقه حق (رؤ١٥: ٣) وكلامه حق (يو١٧: ١٧)، لأنه يُنير بصيرة الإنسان وإدراكه، وذلك عندما يكشف له أسرار موجودات الكون وأسرار العالم غير المنظور أيضاً أي عالم الأبدية، وحين يُعلِن عن غيب المستقبل للأيام الأخيرة في تاريخ العالم، وعن يوم الدينونة الذي سيبدأ بعده عصر مملكة السماء.

الأمانة: والنور لأنه يسير في خطوط مُستقيمة ولا يعرف الالتواء، لذلك هو يُشير إلى الأمانة والاستقامة والصِّدق. هكذا الله نور لأنه هو الأمين (هو١١: ١٢)، وكل طُرقه مستقيمة (هو١٤: ٩)، وأمانته تبقى إلى الدهر (مز١١٧: ٢)، وهو الصادق (رؤ٣: ١٤).

ويتجلّى نور أمانة الله وصدقه في علاقته مع الإنسان. حيث أعلَن له من البداية أن ليس الله إنساناً فيكذب ولا ابن إنسان فيندم. هل يقول ولا يفعل أو يتكلّم ولا يَفي (عد٢٣: ١٩).

وقد حفظ أمانته مع شعبه في العهديْن القديم والجديد. فإن كان اليهود قد استؤمنوا على أقواله، ولكنهم لم يكونوا أمناء، فعدم أمانتهم لم تُبطل أمانته لأنه كما وعد "سيَخلُص جميع إسرائيل" (رو١١: ٢٦).

وإن كان المختارون في العهد الجديد سيحصلون على الخلاص في المسيح يسوع مع مجدٍ أبديٍّ، وبموهم معه سيحيون معه، وبصبرهم سيملكون

معه، إلاّ أهم إذا وُجِدوا غير أمناء فهو يبقى أميناً لن يقدر أن ينكــر نفســه (٢تي٢: ١٠-١٣).

يُهيئ الفرصة للعمل: والنور الطبيعي يُنير الطريــق ويكشــف أمــام قدمي الإنسان عن الحجارة والشوك والوحل والحفر، لكي يســير بتبصّــر فلا يعثر، لذلك فالإنسان يسير فعلاً ويعمل طالما النور موجــوداً. هكــذا الله نور لأنه يُنير بكلمة وصاياه طريق الخير والفضيلة والأعمــال الصــالحة أمام الإنسان ويحذر من الانحراف إلى الشرّ. وطالما كان الإنســان مُســتنيراً بكلمة الله ومُتمسكاً بها، فإن قدميْه تسيران على دَرْب الملكوت الســماوي، ويتخطى عثرات الشرّ ولا يفتر عن العمل الخيِّر، ولا يتوقّف عــن الإثمــار بالأعمال الصالحة، ساهراً عليها مثل العذارى الحكيمات صاحبات المصابيح الموقَدة، اللاتي استحققن الدخول إلى عُرس ابن الملك، حريصــاً علــى أن يكتر لنفسه كتراً في السماء. مُقتدياً بالعبد الصالح الأمين الــذي تــاجر في الخَمس وزنات وربح خَمس وزنات أخر، فاستحقّ أن يــدخل إلى فــرح سيِّده. لذلك طلب داود قائلاً: "أرسل نورك وحقّك، هُما يهديانني ويأتيان بي إلى جبل قُدسك وإلى مساكنك. فــآتي إلى مــذبح الله، إلى الله بهجــة فرحي". (مز٤٣: ٢-٤).

ولذلك يوصينا المسيح له المجد بأن نسير ونعمل في نور وصيّته ما دامت لنا الوصية "سيروا ما دام لكم النور لئلاّ يُدركُكُم الظلامُ" (يــو١٢: ٣٥). وهو يُقدِّم لنا ذاته قدوة بقوله: "ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني ما دام نهارٌ" (يو٩: ٤).

يحمل الحياة: والنور الطبيعي لا يُنير فقط لرؤية الموجودات ومعرفتها وكشف مواطن الزَّلَل والسقوط ويهيئ الفرصة للعمل، بل ينشر أجنحته على كل الموجودات حاملاً لها بين أجنحته الطاقة مصدر الحرارة والدفء، فتنير داخلها بنور الحياة والحركة والنموّ.

هكذا الله هو نور الحياة الطبيعية التي أعطاها منذ البدء بكلمته في النفس الدمويّة لكل جسد، وهذه الحياة هى نور الإنسان الداخلي، لأننا لو أطفأنا كل أنوار العالم الطبيعي نجد نور الحياة يسري في داخلنا وكياننا، كما نُعبِّر عن هذا في صلاة المساء بقولنا: "نشكرك يا ملكنا المُتحنِّن لأنك جعلتنا مُستحقين أن ننظر النور إلى المساء"، والمقصود هو نور الحياة الداخلي؛ لأنه في المساء يكون الليل قد خيّم بظلامه، ولا يكون للنور الطبيعي وجود.

والحياة هى نور بالحقيقة للإنسان، إذا قيست بالموت الذي هو له ظلمة. فكل حيّ على سطح الأرض إنما يتمتّع بالنور. أمّا الميّت فإنه يقبع في ظُلمة القبر، بل وقبلها يجوز ظُلمة الفساد التي تدُب في كيانه للموت والفناء. وشتّان ما بين نور الحياة المُبهِج وبين ظلمة القبر والفساد المُقبِضة.

وهذه الحياة التي للنفس الدموية هى نور الله في داخل الإنسان، كما قال سليمان الحكيم: "نَفْسُ الإنسان سِراجُ الرّبّ" (أم٢٠: ٢٧).

الله أيضاً هو نور الحياة الخالدة التي أفاض بها على الإنسان بروحه من خلال (كلمته)، عندما خلقه ونفخ في أنف آدم نَسمة حياة، وأودع فيه النَّفس الناطقة لتكون أصل الحياة الخالدة الباقية فيه. وصارت هذه الحياة الممنوحة من (الكلمة) عطية لكل إنسان في العالم، وهذا ما عَناه يوحنا الإنجيلي بقوله عن (الكلمة): "كان النور الحقيقي الذي يُنير كل إنسانٍ آتياً إلى العالم" (يو١: ٩).

الله أيضاً نور النَّفس الناطقة من خلال كلام وصاياه، الذي يُنير أمامها طريق الحياة والخلود بتوضيحه الأعمال الشريرة، التي تحمل الموت في داخلها ليتحاشاها الإنسان تجنُّباً للموت، وتوضيحه للأعمال الصالحة التي تحمل الحياة ليتمسّك بها الإنسان لاقتناء الحياة الأبدية.

وقد أكّد المسيح أن حفظ كلامه يعطي حياة أبدية وذلك في قوله: "إن مَنْ يَسمعُ كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياةٌ أبديةٌ، ولا يأتي إلى دينونةٍ، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة" (يو٥: ٢٤)، وفي قوله أيضاً: "إن كان أحدٌ يحفظ كلامي فلن يرى الموت إلى الأبد" (يو٨: ٥١).

وكلام المسيح هو كلام الله نفسه ولذلك فهو الحياة الأبدية كما قال له المجد: "الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصيةً: ماذا أقول وبماذا أتكلَّم. وأنا أعلم أن وصيّته هى حياةٌ أبديةٌ" (يو١٢: ٤٩، ٥٠).

والله أيضاً نور الحياة الأبدية من خلال تجسُّد كلمته، الذي أرسله إلى العالم ليتحد بطبيعتنا بالتجسُّد، ليُقدِّم في تجسُّده شخصية ملموسة وحياة منظورة يضيء بها على الجالسين في الظلمة "ظلمة الجهل والشر"، وظلال الموت "الموت الروحي" (لو١: ٧٩).

وليُحمِّل هذه الشخصية خطايا إنساننا العتيق ويُنفِّذ فيها حكم الموت، وبقوة لاهوته المُتحد بها يبيد عنها سُلطان الموت ويُقيمها إنساناً جديداً. وهذا ما تمَّمه بالصليب للعالم كله، مُعطياً بقيامته خليقة جديدة لكل مَنْ يؤمن به، بعمل صليبه وبقيامته من الأموات. وبذلك نقلنا من الظلمة "ظلمة الموت الأبدي" إلى نوره العجيب "نور القيامة والخلود".

والله أيضاً نورُ حفظ الحياة الجديدة التي نالها الإنسان بموت المسيح وقيامته، وذلك بعمل الرُّوح القُدُس الذي أرسله الآب إلى العالم بعد صعود

المسيح إلى السماء، ليثبّت عطايا الحياة الجديدة ويحفظها في المؤمنين ضماناً لوصولهم إلى السماء للخلود الأبدي والمجد والسعادة الدائميْن.

هذا هو الله النور، نور الحياة للإنسان، الذي بقوّة (كلمته) أنار حياته الدمويّة، ونفسه الناطقة، وبمشورة وصيّته أنار فَهْمه وبصيرته، وبتجسُّد (كلمته) أنار له خليقته الجديدة، وأخيراً بروحه القدوس أنار له سُبل حفظ هذه الخليقة الجديدة للخلود الأبدي.

فالله إذاً نور الحياة للإنسان في كل جوانب حياته وفي كل مشتملات كيانه، نَفْساً وروحاً وعقلاً وقلباً، إنه يغطي حياة الإنسان كلّها ويحصرها بنوره.

هذا من جهة الخصائص الوظيفية للنور وقد رأينا تطابقها مع الله النور.

صورة النور: أمّا من جهة الصورة التي عليها النور، فالنور له مصدر يَنبع منه. وهذا المصدر يشعّ بالنور ويحمِّله طاقة مُنبعثة منه ويرسله بدون انقطاع، فالمصدر قوة ولود؛ لأنه مستودع يلد النور ويفيض به على الدوام طالما هو ـ أي ذلك المصدر ـ قائماً. وكل مصدر للنور يلد النور مرة، ولكن يظل تيار النور مُتدفّقاً منه، ويصل إلى أي مكان ويملؤه ويعمل عمله ويؤدِّي وظيفته دون أن ينفصل عن مصدره الذي ولده.

فصورة النور إذاً: مصدر أو منبع أو أصل يلد النور ويرسله إلى الوجود، ونور مولود من مصدره دون أن ينفصل عنه، وطاقة محمولة مع النور المولود هى سرّ قيام الحياة في الموجودات. أي بتعبير آخر مصدر مُنير، ونور مولود، وطاقة يحملها النور المولود. هذا هو ثالوث النور.

وحدانية ثالوث النور: إذاً أمامنا النور، ثالوث في كيانه الذي يتقوّم به وواحد في ذاته التي لا تنقسم؛ لأنه لا أحد يقدر أن يقول إننا أمام ثلاثة أنوار بل أمام نور واحد. ولا أحد يقدر أن ينكر ثالوث كيان النور الذي هو مصدر النور والنور المولود والطاقة المحمولة فيه. كما لا أحد يقدِر أن يفصل هذه الثلاثة من بعضها، أو يأتي بسكين قاطع لكي يقسم كيان هذا النور إلى ثلاثة أجزاء، لأننا أمام كيان واحد هو النور. فمثلاً المصباح والنور المولود منه والحرارة المنبعثة فيه لا يمكن فصلها عن بعضها، ولا يمكن تقطيعها. وإن كان من الممكن تمييزها عن بعضها كحقائق موجودة، فإننا لا نستطيع أن نقول إنه كائن مُركّب أو ذات مُتعدِّدة، لأنها تشكّل موجوداً واحداً هو النور، وكلها على قَدم المساواة مع بعضها البعض في الوجود وفي الأهمية؛ لأن المصباح ونوره وحرارته متزامنة في الوجود وليس فيها سابق ولا لاحق، لأن المصباح لا يكون مُصباحاً إلاّ إذا كان مُنيراً ولا يوجد إلاّ ونوره معه، والنور لا يولد من المصباح إلاّ وهو يحمل الحرارة فيه. وإذا وُجِدَ المصباح وهو غير مُنير فهو لا ينتسب إلى النور في شيء، وإذا وُجِدَ المصباح وهو عاطل أو عاجز عن الإنارة فهو بمثابة جثّة هامدة. فالنور هو لزوم أو صفة المصباح المُنير فقط والذي ينطبق كل كلامنا عليه.

من جهة أخرى المصباح لا يقلّ كرامة عن النور المولود منه؛ لأنه هو والد النور. والنور لا يقلّ كرامة عن المصباح، لأنه لا معنى للمصباح بدون النور المولود منه، والحرارة المُنبعثة من النور لا تقلّ كرامة عن النور الحامل لها؛ لأنها تشكّل قوّة فاعليته، كما أنها هي في ذاتها سبب حياة الموجودات التي يُنيرها النور.

الصعود من النور الطبيعي إلى الله النور: هكذا الله النـــور الأعظـــم الذي يفوق كل أنوار الطبيعة التي هو جابلها وخالقها، هو كله نور؛ لأنـــه كله معرفة وكله حياة. ومن حيث هو نور فهو بالضرورة يَلد نوراً، وحيث هو كنز المعرفة والحياة فالنور المولود منه هو (كلمته). وقد ولـــده منـــذ الأزل؛ لأن به خلق كل شيء ما يُرى وما لا يُرى، منذ الأزل كان عنـــده (يو١: ١)، منذ أوائل الأرض، من قبل أعماله منذ القـــدم (أم٨: ٢٩،٣٠) لذلك لم يكن هناك زمان كان الله فيه بدون (كلمة)؛ لأنـــه يســـتحيل أن نتصوّر أنه مضى عصر من العصور كان الله مُظلماً أو صـــامتاً. أي بـــدون نور أو بدون كلمة، وقد وَلد كلمته مرّة واحدة وهو ثابـــت فيـــه دون أن ينفصل عنه. لذلك نسمِّي كلمته "الكلمة الـــذاتي" أي الواحـــد مـــع ذات الله، وهو يعمل به؛ لأنه هو نوره، أي قوّته الناطقة وقدرته الفاعلة الحاملـــة في ذاتها روح الحياة لكل كائن حيّ خُلِق به.

هذا هو الله النور، الواحد في ذاته والثالوث في كيانه الذي تتقوّم بـــه ذاته. كيان واحد؛ له ذات منبع النور، وكلمته نوره المولود من ذاته، وروح الحياة المُنبثق منه والذي يحمله كلمته لخلائقه. ثالوث مُتساوٍ في الكيان الإلهي لا يمكن فصله عن بعضه أو تقسيمه أو تجزئته، ومساوٍ لبعضـــه في القـــدرة والأهمية والأزلية، ولا يستغني الواحد عن الآخريْن؛ لأن كلاً منـــهم يتقـــوّم بالآخريْن.

وإذا كانت المُشابهة كاملة والمُطابقة تامّة هكذا بين كلٍ مـــن صـــفات النور وخصائص وطبيعة الله، فلا مُراءٍ في أن الله في جوهره نور بكليّته ومن ثم يكون واحداً في ثالوث، تماماً كالنور ذات الوحدة الثالوثية. هذا من جهة

ـور الطبيعي في خصائصه الوظيفية وصورته، والوصول منها إلى الله النور في خصائصه وصورته، إلاّ أن هناك أيضاً نور العقل.

الصعود من نور العقل إلى نور الكلمة الإلهي:

النور هو "كلمة الله": العقل الإنساني يشعّ بنور العلم والمعرفة، وهذان أي العلم والمعرفة نور قياساً إلى الجهل الذي هو ظلمة، وهذا طبيعي لأن العلم والمعرفة يهديان الإنسان إلى الأشياء وإلى المعاني فيستطيع أن يتعامل معها وبها، وكأنه يرى في النور. وهما يتدفّقان من العقل مصدر ولادهما. وكأن العقل كُتلة من النور؛ لأنه كلّه حكمة وعلم ومعرفة، هذه التي تُعتبر النور غير المنظور الذي يُضيء الإنسان ويُميّزه عن باقي الموجودات.

هكذا الله نور وليس فيه ظلمة البتة (١يو١: ٥)، ونوره الذي يُولد منه هو الكلمة الأزلي الذي يحمل كل الحكمة وكل المعرفة ويمنحهما للعالم. هذا هو النور الحقيقي الذي يُنير كل إنسانٍ آتياً إلى العالم (يو١: ٩).

كلمة الله هو صورة الله ورسم جوهره: إن العقل الإنساني يلد نور الحكمة والمعرفة أي الكلمة، والكلمة هى أداة التعبير وخاصيّة النُّطق للعقل، لذلك هى تخبرنا عن أسرار العقل ومكنوناته وتضيء لنا عالمه المجهول غير المنظور، وتكشف لنا عن باطنه وجوهره وتُقدِّم لنا صورة حقيقية له، بحيث أن العقل الذي لا نراه ولا نستطيع أن نكشف غور أسراره، نراه في كلمته الصانعة أو نُدركه في كلمته الناطقة. وتصبح الكلمة أمامنا صورة للعقل ورسماً لجوهره.

هكذا أيضاً كلمة الله هو قوة النطق في العقل الإلهي أو في الله، لأن الله ناطق بكلمته، وكلمته هو الذي يخبرنا بكل شيء عنه. فالآب بطبيعته غير منظور وغير محسوس وساكن في نور لا يُدنَى منه في علياء سمائه، وابنه كلمته الأزلي معه وكائن في حضنه ولكن الآب أرسله ليُنير به العالم بخلق الموجودات وإعطاء الحياة وإعلان إرادته، وبإرساليته لا ينفصل عنه لأنه نوره، والنور بطبيعته لا ينفصل من مصدره الذي أُرسِل منه.

وقد أعلن الابن إرادة الآب للعالم، وخبَّر العالم بها طوال العهد القديم على ألسنة الأنبياء. وفي الأيام الأخيرة خبَّرنا بها بذاته عندما أتى إلى العالم مُتجسِّداً من القديسة مريم.

فالآب في ذاته لم يَره أحدٌ ولم يسمعه أحدٌ قطّ، لكننا رأيناه وسمعناه في كلمته، والأنبياء قديماً عندما كان الواحد منهم يُكلِّم الناس بكلمة الله كان يقول لهم: "هكذا يقول الرب" فكان مَنْ سمع صوت النبي كأنه سمع من الله نفسه، أمَّا الكلمة المُتجسِّد فكان يقول: "الذي أرسلني هو حقٌّ. وأنا ما سمعتُهُ منه، فهذا أقوله للعالم" (يو٨: ٢٦).

إذاً فارق كبير بين المسيح والأنبياء؛ لأن كلامه يؤكِّد أن الآب أرسله من السماء وليس أنه كواحد من الأنبياء. بل أكَّد أنه هو والآب واحدٌ بقوله: "الآب الحالّ فيَّ هو يعمل الأعمال. صدِّقوني أني في الآب والآب فيَّ" (يو١٤: ١٠،١١) وهذا يعني أن كل كلمات الابن هي كلمات الآب بذاتها، وكل أعمال الابن هى أعمال الآب ذاتها.

إذاً الله غير المسموع وغير المنظور أي الذي لا يُسمع ولا يُرى في ذاته، أصبح منظوراً لنا في كلمته. فمَنْ يرى الكلمة المُتجسِّد الذي هو يسوع المسيح فإنه يكون قد رأى الله كما قال: "الذي رآني فقد رأى الآب" (يو١٤: ٩).

والرؤية هنا لا تعني مُجرّد الرؤية الجسدية للمسيح في صورته البشرية. وإنما رؤيته بالإيمان في لاهوته المالئ ناسوته والمحتجب فيه عن العيان، والذي يظهر ويتأكّد لنا في كمال المسيح في البر والفضيلة والقداسة، وفي سُلطانه الإلهي كخالق وكسيِّد على الوجود كله؛ على الإنسان والحيوان والبحر والرياح، وعلى المرض والموت والشياطين، وما هو الذي ننتظر أن نراه في الله من قدرة وسُلطان أكثر من هذا الذي رأيناه في كلمته!

إذاً، كلمة الله فعلاً هو صورة الله ورسم جوهره.

الكلمة هو الطريق إلى الله: وكما أن الكلمة التي يلفظها اللّسان هي طريقنا إلى العقل الذي نطق بها وإلى التعرُّف عليه، وبدون الكلمة يستحيل الوصول إلى العقل أو الإيمان بوجوده، تماماً كالنور الذي عندما نراه فبالضرورة يقودنا إلى مصدره وإلى حقيقة وجود هذا المصدر.

هكذا كلمة الله هو النور المولود من الله فيكون هو طريقنا إليه كما قال هو عن نفسه إنه هو الطريق والحق والحياة (أي الطريق الحق الحي إلى الله) ولا يقدر أحد أن يأتي إلى الله إلاّ به (يو١٤: ٦).

وإذا كان المسيح هو كلمة الله فيكون هو النور الذي يقودنا إليه، ويكون هو طريقنا الوحيد لمعرفة الله والإيمان به.

الكلمة رجاء الساقطين: وكما أن العقل البشري هو الخالق بكلمته لكل المنشآت والاختراعات الحضارية، ورجوعها إليه[1] يكون سرّ بقائها

---

[1] أي استنادها إلى فاعليته فيها.

ودوامها. هكذا رجوع الخليقة إلى الله خالقها عن طريق كلمته الذي خلقها به يكون سرّ بقائها وخلودها وحياتها الأبدية. إلاَّ أن رجوع مصنوعات العقل إليه رجوع مجازي، لأنها مصنوعات غير عاقلة، والعقل هو الذي يرجع إليها لكي يُبقيها كما هى أو يطورها. أمّا في خليقة الله العاقلة فهى المُطَالبة بالرجوع إليه رجوع المعرفة والإيمان به وبكلمته، وهذا فيه الحياة لها كما قال "كلمة الله" نفسه "هذه هى الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته" (يو١٧: ٣).

إذاً، المسيح كلمة الله الناطق بروحه القدوس في الأنبياء قديماً، والمُتجسِّد في الأيام الأخيرة هو الملجأ الحقيقي لكل نفس ضلّت طريقها وتاهت عن الله الحقّ مصدر حياتها، ليقودها إليه. وهو رجاء النفوس التي سَقطت في الخطية وتغرّبت عن نور الحياة بسبب عصيانها، وتريد الرجوع إلى الله لبدء حياة جديدة صالحة. فمعرفته ومعرفة أبيه الصالح هى التي تُصلحها وتُقيمها وتُعطيها نور حياة جديدة.

كلمة الإنجيل والكلمة المُتجسِّد طريقنا للحياة الأبدية: إذاً الحياة الأبدية لا تكون إلاَّ بالرجوع إلى معرفة الله وكلمته المُتجسِّد يسوع المسيح، وهذه المعرفة لا تكون إلاّ بكلمة الإنجيل، فهى تُعطينا الحياة بإنارة الطريق لنا لمعرفة الله والإيمان به، وبكلمته المُتجسِّد يسوع المسيح.

فالذي يؤمن بكلام الإنجيل يؤمن بالمسيح والله (يو١٧: ٢٠) ومَنْ يحيا بالإنجيل يحيا بالمسيح (يو١٥: ١٠) وإذا كان المسيح هو الحياة (يو١١: ٢٥) فالذي يحيا به يملك الحياة ذاتها، ولن يَرى الموت (يو٦: ٥١).

فإذا كان المسيح بشخصه وإنجيله أنار لنا طريق الحياة في الله، فيكون حقاً هو نوره الحقيقي الآتي إلى العالم. ويصبح رجوع الإنسان إلى نور كلمة الإنجيل ونور الكلمة المُتجسِّد هو السبيل الوحيد له للحياة الأبدية وللبقاء والخلود.

مجيء الكلمة المُتجسِّد كان إعلاناً للثالوث الأقدس: هذا هو الله النور الذي أرسل نور كلمته لكي يهدينا إليه وإلى الحياة به، ولولا نوره هذا الذي أشرق به على العالم في وجه يسوع المسيح (٢كو٤: ٦) لظلّ العالم مُتخبِّطاً في معرفته وفي البلوغ إليه، كما تخبَّطت الفلسفات الوثنية التي تنوَّعت أدلّتها على وجود الله، وبالرّغم من ذلك ظلّت عبادة الأوثان قائمة في العالم. ولم يهزّ أركانها سوى بزوغ نور "كلمة الله" الذي أعلن ذاته بقوله: "أنا قد جئتُ نوراً إلى العالم" (يو١٢: ٤٦). وقد صار كذلك لأنه أعلن للعالم معرفة الله الحقيقية ومعرفة روحه القدوس؛ روح الحياة. لذلك كان مجيئه إعلاناً لسرّ الثالوث الأقدس وإظهاراً لمعرفة الله الواحد النور، والد النور الكلمة، وباثق الروح المُحيي. أي الواحد في جوهره وذاته، والثالوث في كيانه وصورته.

رؤيـة إجماليـة

والآن نجمل مقالنا عن الله النور فنقول إننا قد استعرضنا النور الطبيعي في خصائصه التي في حدود معرفتنا، ووجدنا أقربها إلى موضوعنا نقاوته وصفاءه، وإبهاج النظر بجماله وبهائه، وانتشاره وملئه كل مكان وإنارته لكل الموجودات وكل الأماكن دون تمييز أو مُحاباة، وإظهاره كل شيء على حقيقته، ومساراته المُستقيمة التي لا تعرف الالتواء، وإنارته للرؤية فيُمكّن الإنسان من السّير والعمل، وحمله الحرارة والدفء سرّ حياة الموجودات الحيّة.

وعندما صعدنا إلى النور الإلهي وجدنا نفس الخصائص بصورة أبهى وأعظم، حيث رأينا النقاوة والقداسة في كمالها، والجمال والبهاء في عظمته، وغير المحدودية على إطلاقها، والحُبّ الفائق نحو جميع الخلائق، والحق في ذاته، والأمانة في استقامتها، والإنارة للبصيرة بالحكمة الفوقانية والمشورة العلوية، والإشراق بنور الحياة الخالدة لكل بشر.

هذا من جهة الخصائص الوظيفية، أمّا من جهة الكيان فقد رأينا النور في وحدانية ذاته وثالوث كيانه من المصدر المُنير والنور المولود منه والحرارة المُنبعثة منه والمحمولة في نوره. وعندما صعدنا للنور الإلهي وجدنا الله النور في وحدانية ذاته وثالوث كيانه من الذات المُنيرة والدة النور الكلمة الأزلي، وباثقة الروح نور الحياة لكلّ بشرٍ.

هذا التقارب الوثيق جداً بين النور الطبيعي والعقلي أيضاً، والله النور في خصائص وفي كيان كل منهما، يُقدِّم لنا جوهر الله النور حقيقة جليّة بكل ما يتمتّع به من خصائص النور الإلهي، التي بدت خصائص النور الطبيعي

والعقلي ظلاً ورمزاً لها وطريقاً إليها. كما يُقدِّم لنا هذا التقارب حقيقة الله الواحد الثالوث في ألمع صورها المُضيئة. كما يُقدِّم لنا مجد وجلال كلمة الله، فإن كان النور هو مجد وبهاء منبعه الذي ولده ويعطينا صورة حقيقية لقوّته وطبيعته، فيكون هو الطريق الوحيد والحقيقي إلى منبعه ويحمل كل طاقته، وهو رجاء الضالين الذين أحاطت الظلمة بهم، وهو المظهر الوحيد الذي يُعلن ثالوث النور؛ لأن مُجرّد ظهوره يشير بالضرورة لمصدر ولادته كما أنه لا يظهر إلاّ حاملاً على أجنحته الطاقة المُنبعثة من مصدره خلاله. هكذا كلمة الله أثبت بيقين لا يقبل الجدل أنه بهاء مجد الله وصورته ورسم جوهره، وأنه الطريق الوحيد لمعرفة الله والإيمان به ويحمل منه روح الحياة للعالم، وأنه الرجاء الوحيد للنفوس التي استعبدها سُلطان الخطية وحجبت الأفكارُ المضلّةُ الحقيقةَ عنها، ولقد أظهر "الكلمة" لنا سرّ ثالوث الله الأقدس إذ كلّمنا عن الآب الذي أرسله وعن الرُّوح القُدُس الذي يُرسله باسمه أي من خلاله وفي استحقاق الإيمان به. هذا هو الله النور في جوهره وفي كيانه. وليس أبهى وأبهج من جوهر النور، الواحد في ذاته والثالوث في كيانه إعلاناً عن الله النور. فما أمجد الله الواحد الثالوث نسبِّحه ونباركه؛ لأنه أشرق علينا بنور معرفته الحقيقية.

الذي يُنكر الله النور هو في ظلمة: بعد كل هذا الإيضاح سوف لا نجد مَنْ يُنكر حقيقة الله النور الواحد الثالوث، إلاَّ الذي لا يريد أن يُقْبِل إلى الله النور "لأنه أحبّ الظلمة أكثر من النور" (يو٣: ١٩) لئلا توبَّخ أعماله (يو٣: ٢٠). وهو يشبه من يرى جيّداً ومع ذلك فهو مع قدرته على الرؤية، إلاّ أنه ينكر نور الشمس في لمعانها !

مسكين هذا الإنسان الذي يقاوم النور بكل قوّته. إنّ من يقاوم نـــور معرفة الله يقاوم الله ذاته.

ومَنْ يُنكر حقيقة الله النور هو كمَنْ يأخذ من ظلمة الجهل الإيمـــاني أو الضيق الفكري حجاباً يضعه على بصيرته فيفقد الرؤية الروحيّـــة بإرادتـــه، ويقصي نفسه عن معرفة الله الحقيقية. ومَنْ يُقاوم الله يشبه من يرفس مناخس (أع٩: ٥) فتُدميه جراحات النكران والجحود.

فلتدركنا مراحمك يارب، ولا تسمح أن تغطّي الظلمة قلوبنا أو عقولنا فتحجب عنّا نور معرفتك، بل اجعلنا أن نختم إيماننا بك بالسجود لثالوثـــك الأقدس النور الأعظم.

الفصل الرابع

اللّه الروح الأقدس

إنَّ الله كروح فهذا هو جوهر الله بالحقيقة؛ لأن الله كله روح ويمكننا أن نتقرّب إلى معرفة جوهر الله الروح بتعرُّفنا أولاً على الروح في عالمنا هذا.

الروح في خصائصها:

سموّها ولطافتها: نلاحظ في مجال المادة أنه يزيد سموّها بزيادة لطافتها. كما يقول القدماء إن النار أسمى من الهواء لأنها ألطف منه. والهواء أسمى من الماء والماء أسمى من التراب وهكذا. كذلك الإنسان أيضاً له روح مُتحدة بجسده، وروحه بالطبع لطيفة وسامية عن جسده؛ لأنها مركز التعقُّل والعواطف السامية، عكس الجسد الكثيف الذي هو مركز كل الميول الحسية الشهوية المُتعلّقة بالمادة. أمّا الله فبطبعه روح لطيف جداً وبعيد عن الكثافة التي تُميّز المادة وهذا يليق برفعة مقامه وسموّ جوهره؛ لأنه روح محض ومُجرّد كليّة عن المادة.

تجرُّدها عن الجسميّة: والرُّوح وإن كانت تسكن جسم الكائن الحيّ، لكن هى ذاتها ليس لها جسم؛ لأن الجسم مادي، أمَّا الروح فمجرّدة عن المادة، والجسم لأنه مادي فهو قابل للتغير والتحوّل؛ لأنه يشيخ ويتحلّل ويفسد. لذلك فهو فانٍ أيضاً وكل ما هو فانٍ فهو زمني، أي له عمر محدود ينتهي فيه. أمّا الروح فهى بسيطة جداً وجوهرها ثابت غير قابل للتغير

أو التحوّل؛ لأنها لا تشيخ ولا تتحلّل ولا تفسد، لذلك هي باقية أيضاً وخالدة.

هكذا الله ليس له جسم لأنه روح (يو٤: ٢٤). وهو بسيط موجود بذاته منذ الأزل لا يتغيّر ولا يَفنى، بل هو ثابتٌ وباقٍ إلى الأبد، وهذا يليق به كأصل كل الكون والوجود وغايته، فالخليقة وُجِدَتْ به، وغايتها البلوغ إليه كما يقول الكتاب: "أنت ياربّ في البدء أسَّستَ الأرض، والسموات هي عمل يديْك. هي تَبيدُ ولكن أنت تبقى، وكلُّها كثوبٍ تبلى، وكرداءٍ تطويها فتتغيَّر. ولكن أنت أنت، وسنّوك لن تفنى" (عب١: ١٠-١٢) وكما يقول في مكانٍ آخر: "لأن انتظار الخليقة يتوقّع استعلان أبناء الله ... فإننا نعلم أن كل الخليقة تئنُّ وتتمخَّض معاً إلى الآن" (رو٨: ١٩، ٢٢).

تتمتّع بالحريّة: والرُّوح حرّة لا يحدّها الزمان والمكان بل تتعداهما، فهي تتمتّع بالحريّة والانطلاق كما تملك حريّة إرادتها. وهكذا الله بطبيعته الروحيّة يعلو في وجوده على الزمان والمكان وهو مُتحرِّر منهما، بل هو حُرّ بالكامل أي لا يتملّك عليه شيء ولا يسوده سُلطان، فالحريّة هي من صفاته الإلهية بسبب طبيعته الروحيّة لأنه "حيث روح الرّبّ هناك حريّة" (٢كو٣: ١٧). بل هو كخالق فيكون بالضرورة منبع الحرية التي يتمتّع بها الإنسان (مت٢٣: ٣٧) الذي خلقه على صورته ومثاله (تك١: ٢٧) كما أكّد السيد المسيح هذا بقوله: "إن حرَّركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً" (يو٨: ٣٦)، هذه الحريّة التي منبعها الله هى التي يُقدِّم الإنسان من أجلها ذبيحة الحمد والشكر لله، كما يقول داود النبي: "حَلَلْتَ قيودي. فَلَكَ أذبح ذبيحة حَمدٍ" (مز١١٦: ١٦، ١٧).

لا تُرى ولا تُحسّ: والرُّوح لأنها غير جسمية وغير مادية، فهي لا تقع تحت الحواس، فلا تُحسّ باللّمس ولا تُسمع بالأذن ولا تُرى بالعين. هكذا "الله لم يَرَهُ أحدٌ قطُّ" (يو١: ١٨) "والآب نفسه ... لم تسمعوا صوته قط، ولا أبصرتُم هيئته" (يو٥: ٣٧)، كما لا يقدر أحد أن يرى وجه الله لأنه "هو الروح" (٢كو٣: ١٧)، ولأن الإنسان لا يراه ويعيش (خر٣٣: ٢٠) وهكذا، لأن الله روح فهو بالحقيقة "ملك الدهور الذي لا يَفنى ولا يُرى، الإله الحكيم وحده" (١تي١: ١٧).

لا تتم الصلة بها إلاّ روحياً: والرُّوح لا تتفاهم ولا تقوم صلتها إلاّ مع روح نظيرها، لذلك أيضاً لا تقوم علاقة بين الإنسان والله الرُّوح إلاّ من خلال علاقة روحيّة، فيها تتلامس روح الإنسان مع الرُّوح الأزلي؛ الله خالقها، فتسمع لصوته في داخلها وتُسمعه هي صوتها. لذلك فالإله الرُّوح وحده هو الذي تليق به العبادة كما قال السيد المسيح "الله روحٌ. والذين يسجدون له فبالرُّوح والحقّ ينبغي أن يسجدوا" (يو٤: ٢٤)، لأن ما هي صلاتي إلاّ رفع الرُّوح والفكر إلى الله الروح الأزلي. فإنني عندما أُصلّي "أُصلّي بالروح، وأُصلّي بالذّهن أيضاً" (١كو١٤: ١٥). وأنا لا أُصلّي بجسدي بل بروحي، واشتراك جسدي في تقديم العبادة لله هو من خلال العبادة الروحية كما يقول الكتاب: "فأطلُب إليكم ... أن تُقدِّموا أجسادكم ذبيحةً حيّةً مُقدَّسةً مَرضيَّةً عند الله، عبادتكُم العقليَّة" (رو١٢: ١)، لذلك فعبادتي الروحية هي التي تحوز القبول لدى الله؛ لأنها تُساير طبيعته الروحيّة "فالساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحقّ، لأنّ الآب طالبٌ مثل هؤلاء السَّاجدين له" (يو٤: ٢٣).

هى سرّ الحياة والقيامة: والروح هى سرّ الحياة في جميع الكائنات الحيّة، وبدون الرُّوح تصبح جميع الخلائق جمادات ميّتة ساكنة لا حراك لها ولا حس أو إدراك فيها. وتصبح ثقلاً على الوجود إذ تصبح عندئذ في حُكم وجود العَدم، ونقول وجود العَدم لأنها تكون موجودة حقاً ولكن وجودها كعدمه، بل عدمها أفضل من وجودها الميت؛ لأن الموجود الميت نرى الناس يسرعون في التخلُّص منه؛ لأنه أصبح جثة هامدة وبقاء جُثّته فيه ضرر وإيذاء.

وإذا كانت أرواح الخلائق هى هكذا سرّ الحياة القائمة فيها، فكم بالحري الله خالق كل الخليقة وربّ كل ذي جسد، هو بالضرورة الروح الأعظم الذي وهب روح الحياة لكل خلائقه وهو أصل عطية الحياة في كل كائن فيها، إذ له سُلطان الحياة والموت على كل الكائنات (يو٥: ٢١) وهو "عندما ينزع أرواحها تموت، وإلى تُرابها تعودُ" (مز١٠٤: ٢٩)، وعندما يُرسل روحه تخلق وتُجدِّد وجه الأرض (مز١٠٤: ٣٠) لأن "الروح هو الذي يُحيي" (يو٦: ٦٣).

وبالنسبة لنا نحن البشر، فروح الله ليس فقط أصل حياتنا بل هو الذي سيُقيمنا من الموت أيضاً وسنختبر هذه الحقيقة كاملة في اليوم الأخير كما تنبأ حزقيال "فقال لي: تنبأ للروح، تنبأ يا ابن آدم، وقُل للروح: هكذا قال السيِّد الرب: هلُمَّ يا روح من الرياح الأربع وهُبّ على هؤلاء القتلى ليحيوا. فتنبأت كما أمرني، فدخل فيهم الروح، فحيوا وقاموا على أقدامهم جيشٌ عظيمٌ جداً جداً" (حز٣٧: ٩، ١٠).

روح القيامة والخلود: إن كان روح الله هو سرّ القيامة في اليوم الأخير إلاّ أن المسيح كشف لنا أن القيامة على نوعين، قيامة الأبرار للحياة وقيامة

الأشرار للدينونة كما قال: "تأتي ساعة فيها يسمع جميع الـــذين في القبـــور صوته، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحيـــاة، والـــذين عملـــوا السيئات إلى قيامة الدينونة" (يو٥: ٢٨،٢٩).

والأبرار الذين فعلوا الصالحات حسب الوصية إنما فعلوها بقوة المسيح الساكن فيهم حسب إعلانه "بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً" (يو١٥: ٥).

والمسيح يسكن في الأبرار بروحه القدوس. والرُّوح القُدُس هو الـــذي يثمر في الإنسان أعمال الروح للحياة، فالرُّوح القُدُس هو العامل للحيـــاة في الإنسان سواء بقوة الحياة الكائنة فيه والطاردة لرائحة المـــوت، أو بأعمـــال الحياة ذاتها المُثمرة في الإنسان. لذلك هو سرّ قيامة الجسد للحياة. كما يقول مُعلّمنا بولس: "إن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكناً فـــيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات سيُحيي أجسادكم المائتـــة أيضـــاً بروحـــه السّاكن فيكم" (رو٨: ١١).

هكذا رأينا الرُّوح في سموّها ولطافتها، وفي تجرُّدها عن الجسمية وعدم وقوعها تحت النظر واللّمس وتمتُّعها بالحريّة، والصلة لا تتم بها إلاّ روحيـــاً، وهي سرّ الحياة والقيامة وسرّ القيامة للخلود.

هذه هي خصائص الرُّوح التي تفصح لنا عن حقيقة جوهرها. ويبقى لنا أن نتعرّف على صورتها.

صورة الروح:

أولاً: روح الكائنات الحيّة: إنّ الرُّوح في جوهرهـــا وطبيعتـــها وإن كانت لا تُرى لكنها تُدرَك من تيار الحياة المُتدفّق منها في الكائن الحي، حيث تفيض فيه بصفة عامة حركة ونمواً وإحساساً، وفي كائناته العُليا أي الإنسان

تفيض فيه بصفة خاصة فَهْماً ونُطقاً. وهذه هى علامات الحياة؛ لأنّ الحركة والنموّ والإحساس هى علامات الحياة على مستوى النَّفس الدمويّة الترابية المائتة كما تبدو لنا في الكائن الحيّ عموماً ومن بينه الإنسان بطبيعة الحال. والفَهْم والنُّطق هى علامات تُميّز الحياة على مستوى النَّفس الناطقة الخالدة كما تبدو في الإنسان وحده فقط بوجه خاص.

إذاً الروح في الكائنات الحيّة تحدِّدُ صورتَها علاماتُ الحياة في تلك الكائنات من حركة ونموّ وإحساس، وسلوكٌ تقوده وسائل الإدراك الحسّي في الكائنات الدنيا وتزيد عليها وسائل الإدراك العقلي في الكائنات العُليا.

وبالملاحظة نرى أن هذه العلامات لا تقوم عشوائياً في الكائن الحي بل بنظام وقوانين مُحكمة، حيث نرى الحياة النامية في النبات تسير بنظام عجيب في امتصاص الغذاء من التربة وفي التأثُّر بالهواء والضوء والحرارة، وفي تركيب النبات من أجزاء ثابتة من جذر وجذع وورق، وفي تركيب الخليّة النباتية وفي نظام التكاثُر في النبات وقانون الوراثة الذي يحكمه بأن يُعطي كلُ نبات بذراً كجنسه، وفي أنواع النبات التي تتدرّج في الرُّقي من عُشب إلى بقلٍ إلى شجرٍ، وفي التنوّع المُتناسق للعائلات النباتية، وفي المواقيت المناسبة من السنة لزراعة ونموّ كل محصول، وفي المدة المُحدّدة لنُضج كل منها.

كذلك نرى الحياة النامية الحاسة في الحيوان الذي يشترك مع النبات في كل صفات الحياة النامية، ولكن بدرجة أعلى وأكثر تعقيداً نظراً للجسم اللّحمي الدموي وما يحويه من الأجهزة الدقيقة الفائقة الخِلقة، ويمتاز على النبات بجهاز الإحساس الذي يسري في كل كيانه الجسدي وينتشر على

سطح الجلد كله، بالإضافة إلى وسائل الإدراك الحسي من نظر وسمع وشم وذوق ولمس، والتي توجّه سلوك الحيوان، وما يتبع السلوك من انفعالات الخوف والفرح والغضب والحُزن والتأهب للهجوم والاستعداد للدفاع والشعور بالألم وغيرها من الانفعالات. والتأمُّل في سلوك الحيوانات والطيور وحتى الحشرات نفسها مثل النمل والنحل يطلعنا على نماذج مُدهشة من السلوكيات المُحدّدة مساراتها بدقّة ونظام فائقيْن.

كذلك أيضا نرى الحياة النامية الحاسة الناطقة في الإنسان الذي يشترك مع النبات في الحياة النامية، ومع الحيوان في الحياة النامية والحاسة، ويمتاز عليهما بالعقل الناطق الذي يعبِّر عن فكره بالكلمة، ويدرك الأمور المجرَّدة والكلية ويبتكر ويُبدع، وكل يوم يصنع جديداً، وقادر على تطوير ذاته ومجتمعه.

هذه هي علامات الحياة في خلائق الله الحيّة التي تعطيها وجوداً قائماً له علله الأولى (أي أسباب وجودها) وغاياته القصوى (أي الهدف من وجودها)، وجوداً حيّاً مُتحرِّكاً يشير إلى مُبدعه وخالقه الله الذي قال عنه مُعلِّمنا بولس: "لأننا به نحيا ونتحرَّك ونوجَد" (أع١٧: ٢٨) واضعاً الحياة سرّ الحركة، والحياة والحركة هما اللذان يُعطيان الكائن الحيّ الوجود الحقيقي. وجوداً يتمتّع بدقّة الصُّنع والخَلق، مما يدل على أن تيار الحياة الذي هو علّة الوجود الحقيقي للخلائق الحيّة مُفعم بنور الحكمة والمعرفة، والحكمة والمعرفة لا تقوم إلاّ في الكلمة، أي أنه تيار عاقل، ليس بمعنى أن النبات والحيوان يعقل ذاته أو شيئاً خارجَ ذاته، ولكن بمعنى أنه يحمل حياة مُنظمة بقوانين ثابتة تحكمه في كل شيء.

إذاً، روح الخلائق الحيّة تحمل فيها تيار الحياة؛ تياراً عاقلاً أي مُحكماً بقوانين ثابتة في الكائنات الدنيا، وتياراً عاقلاً يحمل فكر القوة الناطقة في الإنسان. هذا هو ثالوث الكائنات الحيّة في عمومها، **روح تحمل تيار الحياة العاقلة.**

ثانياً: الصعود من روح الكائنات الحيّة إلى الله الروح: نقول مع الفارق العظيم هكذا الله الروح الأزلي وإن كان هو روحاً محضاً لا يمكن أن يُرى أو أن يُحس، ولكن العقل الإنساني يُدرك وجوده الحيّ من تيار الحياة الذي يسري في الكائنات الحيّة؛ لأنه من أين أتت الحياة لهذه الكائنات سوى من خالقها الذي لابد أن يكون له الحياة في ذاته لكي يضعها في خلائقه ! ولذلك لابد أن يكون هو روحاً يفيض حياة حتى يمكن أن يسري منه تيار الحياة في هذه الخلائق، ولكن إن كان تيار الحياة في هذه الكائنات تياراً عاقلاً حكيماً تحكمه قوانين وقواعد، فمن أين صفة الحكمة لهذا التيار الحي إلاّ من الله الذي فاض به على هذه الكائنات.

إذاً هذا الإله الخالق الذي هو علّة الحياة النامية الحاسة الناطقة في خلائقه الحية، لابد أن يكون ذاتاً جوهرها روحي، أو قل هو الرُّوح الأعظم الذي يحمل روح الحياة والنُّطق.

ثالوث الروح: هذا هو الله الرُّوح الذي وإن كان ذاتاً روحية واحدة مُنفردة أو هو روح محض، إلاّ أنه لا يمكن إنكار ثالوث روحه كذات روحية حيّة ناطقة، أي ذات جوهرها روحي، وهذه الذات الروحيّة كأصل للوجود كله وللخلائق الحيّة، لا يمكن أن تكون ذاتاً خاوية فارغة بل لابد وأن يسري

فيها تيار الحياة أي الرُّوح، والذات نفسها هى منبعه أي منبع هــذا التيــار، وتيار الحياة النابع من الذات الإلهية تيار عاقل بالضرورة، ولا يكون عــاقلاً ناطقاً إلاّ بالكلمة.

هذا هو الله الروح الذي يفيض بتيار الحياة، ويفيض بنــور الكلمــة. هذا هو الله الرُّوح الواحد في ذاته والثالوث في كيانه. إذاً، لا تناقض إطلاقاً بين طبيعة الله الروحية المُنفردة في جوهره، وبين ثالوث ذاتــه الواحــدة في صورته.

الفصل الخامس

اللَّه الواحد الثالوث هو الإله الحقيقي

١ - منطقية الثالوث:

أ - العقل والدين يُقرّان نسبة هذه الجواهر لله:

والآن أي إنسان يُفكِّر بعقله ويؤمن بالله فليتأمّل ويخبرنا، هل هناك من جواهر في حدود علمنا البشري يمكن أن نصعد من خصائصها إلى خصائص وصورة الجوهر الإلهي مثل العقل، والنور، والرُّوح !

وليتفضّل ويدلّنا أهل العلم والمعرفة على جواهر أسمى وأرقى من هذه الجواهر في الوجود كله. وهل هناك من جواهر غيرها تضاهيها في مُشابهتها لكل ما يتوقّعه العقل من خصائص في الذات الإلهية ؟

وهل هناك من دين يؤمِّن على ذاته أنه دين سماوي لم يُقرِّر في نصوص دينه أن الله روح، وأن الله نور، وأن الله خالق العالم بكلمته، ويقول للشيء كُنْ فيكون؟

ب - المقصود بمبدأ "الله لا يُشبَّه بشيء":

حقاً إن الله أمر شعبه قديماً أن لا يشبِّهوه بشيء حيث قال لهم على لسان إشعياء النبي: "بِمَنْ تُشبِّهونني وتسوُّونني وتُمثِّلونني لنتشابه؟" (إش٤٦: ٥)، ولكن كان المقصود بهذا الأمر نهيهم عن تشبيهه بصور حسية؛ لأن الله كان يُحذِّرهم حينذاك من عبادة الأوثان. الأمر الذي أكَّده مُعلِّمنا بولس بعد ذلك في قوله للأثينيين الوثنيين "فإذ نحن ذُرِّية الله، لا ينبغي

أن نظنَّ أن اللاهوت شبيهٌ بذهب أو فضّة أو حجر نقش صناعة واختراع إنسان" (أع١٧: ٢٩). وطبعاً جواهر العقل والنور والرُّوح بعيدة عن هذه المحسوسات.

ومع ذلك لا يقدر أحد أن يتجاسر ويُشبِّه الله بشيء؛ لأنه مُتعالٍ وسامٍ على كل خلائقه، وهو قطعاً لا يشبهه شيء في الوجود على الإطلاق.

جـ ـ الله نسب لنفسه هذه الجواهر:

ولكن إذا كان هو تبارَك اسمه لأجل تقريب ذاته لنا من خلال لُغتنا البشرية قد نسب لنفسه هذه الجواهر بعينها، حيث تفضّل علينا بالإعلان عن ذاته أنه روح: مُعطينا الحياة، وأنه كلمة: خالقنا، وأنه نور: مُعطينا الحكمة. وواضح في كل إعلان من هذه أنه يتناول جوهره والخاصية الوظيفية لهذا الجوهر في علاقته بنا وعمله فينا. كما يتّضح فيه التوافق المنطقي والارتباط العلّي بين الجوهر ووظيفته. فإعلان الله لنا عن ذاته كمصدر وجودنا وخالقنا، يتوافق جداً مع إعلانه عن ذاته كعقل أو كلمة؛ لأن العقل علّة الوجود ولا يخلق إلاّ بكلمته، وإعلان الله عن ذاته أنه سرّ حياتنا يتوافق مع إعلانه عن ذاته أنه روح؛ لأن الرُّوح هو أصل الحياة، وإعلانه عن ذاته أنه نور؛ لأن النور هو الذي يضيء البصر والبصيرة وهو الذي به تصير الرؤية في الخارج والاستنارة في الداخل.

فإذاً، ما أعظم حكمة الله الذي يعرف أنه من المستحيل علينا أن ندرك كنهه أو نعرف جوهر ذاته إلاّ بمعطياته، فلذلك لم يتركنا في جهل مطبق من جهته، بل بقدر ما تسمح به إمكانياتنا التي خلقنا بها قدَّم لنا وسائل معرفته التي تقودنا للإيمان به حتى نحبه ونعبده.

د - وجوب الشكر لله لتسهيل بلوغنا إليه:

من أجل هذا نحن نحسب أنفسنا مديونين لله لِما أعطانا من عقل ونور وروح، لكي نصعد منها إلى معرفته، وكلها أمور أو جواهر نعرفها كبشر بل ونتمتّع بها؛ لأنه لكوننا مخلوقات عاقلة فلنا حياة ولنا فَهْم ومعرفة، لذلك فهى كلها أيضاً أمور ليست بعيدة عنّا.

وقد رأينا كيف أمكننا أن ندرك مدى التقارب العظيم بين خصائص كل من العقل والنور والرُّوح وخصائص الجوهر الإلهي، وأن كل ما للعقل والنور والروح هو لجوهر الله، وإن كان بما هو أسمى وأمجد بالطبع فيما يخُص الله.

هـ - التطابق في المشابهات بين هذه الجواهر والله:

رأينا أن التطابق واضح بين صورة كل من العقل والنور والروح والجوهر الإلهي، بل إننا رأينا أن الله عقل كامل ونور كامل وروح كامل، وهو هذه الثلاثة معاً في وقت واحد فهو عقل مُنير حيّ، وهو نور عاقل حيّ، وهو روح عاقل مُنير، وهذا يجسّد لنا بتعبير أقوى الصور الثالوثية لهذه الجواهر والترابط الوثيق الوحدوي بينها بحيث لا تنفصل إحدى حقائق الثالوث في ذات الله عن الحقيقتيْن الأُخرتيْن، ولا تستغني عنهما بل إنها تتقوّم بهما. وحيث أن هذه الجواهر كلّها صور ثالوثية وهى نفسها ذات الله، فمن البديهي المنطقي أن يكون الله ثالوثاً.

٢ - حتمية الثالوث:

أ - منطقيّته: إذ صار واضحاً أنه ليس أمام الإنسان أسمى من جواهر العقل والنور والروح في الوجود كله لكي ينسبها إلى الله. وإذ ثبت أن الله

جلّت قدرته أعلن عن ذاته للإنسان أنه الكلمة وأنه نور وأنــه روح. إذاً الله بالضرورة عقل ونور وروح.

وإذ ثبت لنا أن جواهر العقل والنور والروح جواهر تمتــاز بالوحــدة الثالوثية. إذاً، الثالوث يفرض ذاته على الله الواحد.

إذاً، حتمية الثالوث حقيقة لا مفرّ منها يفرضها العقل والإعلان الإلهي معاً، **ويكون الله الحقيقي وحده هو الله الواحد الثالوث.** ومن ثم وجــب الإيمان بحقيقة الله الثالوث إيماناً يدعمه العقل والنقل[1] معاً. ولا إله إلاّ هو.

ب - الجواهر الثالوثية حيّة ولودة: وهذه الخاصية هي علّــة وجــود الثالوث في ذات الله. وهي حقيقة يقينية؛ لأن جواهر العقل والنور والــروح التي رأينا تقارباً وتطابقاً بينها وبين جوهر الله أو هي جوهر الله ذاته، هــي كلها جواهر ثالوثية، وهي ليست كذلك إلاّ لأنها جواهر حيّة ولودة، فهــي ليست جامدة مُغلقة على ذاتها أو ليست خاوية فارغة بل هي جواهر روحية تشعّ للخليقة كلها وتلد وجوداً وحياة.

وحيث أنها جواهر روحيّة فثالوثها إذاً ثالوث روحي لا يَمُت للمــادة ولا إلى اللّحم والدّم بصلة، حتى يكون واضحاً أن نظرة الإيمان المسيحي إلى ثالوث الله نظرة بعيدة كل البعد عن أي تصوّر وثني لله. كأن يكون الله قــد تزوّج وأنسل ولداً كما يلد الحيوان !

إن الله - كما يؤكّد الإنجيل - كله عقل وكلــه كلمــة (يــو١: ١)، فهو أصل ومنبع الوجود (تك١: ١)، والله كله نور (١يو١: ٥)، بــل هــو

---

[1] الوحي.

أبو الأنوار (يع١: ١٧)، وأصل الحكمة والفَهْم (أم٨: ١٢)، والله كله روح (يو٤: ٢٤)، بل هو أبو الأرواح (عب١٢: ٩)، وإله أرواح جميع البشر (عد٢٧: ١٦). هذه هى شهادة الإنجيل عن الله.

فواضح بكل جلاء أن الله عقل ونور وروح. والعقل لابد أن يلد كلمة، والنور لابد أن يلد نوراً، والروح لابد أن تلد روحاً أو تلد تيار حياة.

وإن لم يلد العقل معرفة وفكراً تترجمهما الكلمة لأصبح عقلاً خاوياً، وخير له - إن جاز التعبير - أن يُلقى في سلّة المُهملات من أن يكون عقلاً. وإن لم يلد النور نوراً لأصبح كمّاً مُهملاً ولا قيمة له. وإن لم تلد الروح روحاً وحياة لأصبحت عدماً وهباء.

جـ - الولادة في الجواهر روحيّة وليست جسدية:

لذلك ففعل الولادة موجود بالضرورة في هذه الجواهر، ولكنه بمعنى بعيد عن المادة الجامدة، أو بمعنى روحي تحتمه طبيعتها الروحية لذلك هى ولادة ليست بانفصال المولود عن مصدر ولادته كما في الكائنات الحيّة، بل ولادة مُتّصلة أي بغير انفصال الكلمة عن العقل، أو النور عن مصدره، أو تيار الحياة عن الروح، وولادة ليس فيها سابق ولا لاحق؛ لأنه حيثما وُجِدَ العقل وُجِدَت الكلمة، وحيثما وُجِدَ مصدر النور وُجِدَ النور المولود منه، وحيثما وُجِدَت الروح وُجِدَ تيار الحَياة. وهى ولادة أيضاً ليس فيها أكبر ولا أصغر، أي ليس فيها المولود أصغر من الوالد؛ لأنه حيث أن كلاًّ من الجوهر والمولود منه متزامنان في الوجود فيكونان مُتساوييْن في زمن كل منهما.

وبالنسبة لله وكلمته المولود منه فمتساويان في الأزلية والأبدية. وبالطبع هما مُشتركان في روح الحياة بفعل الولادة.

إذاً هذا ثالوث يمتاز بالمساواة المُطلَقة والوحدة الكاملة لأنه ثالوثُ ذات واحدة وإله واحد هو الإله الروحي، والعقل المحض، والروح البحت، والنورِ لا غير، الذي فيه فعل الولادة فعل روحي بحت يتماشى مع طبيعة وجوهر الله الروحي.

الثالوث هو الطريق الوحيد لمعرفة الله:

أ ـ الجواهر لم يَرها أحد: وإذا كان الله عقلاً ونوراً وروحاً، فإننا نسأل أنفسنا: مَنْ مِنَ البشر رأى بعينه العقل الإنساني الذي ينبع منه الذكاء والفَهْم والفكر، أو مَنْ رأى روح الإنسان التي يتدفّق منها تيار الحياة، أو مَنْ رأى المنبع الذي يفيض في داخل الإنسان بنور الكلمة والحياة ؟ الجواب لا أحد بالطبع.

ب ـ المولود من كل جوهر هو طريقنا إليه:

إذاً، من أين عرفنا العقل، والنور (نور الفكر والمعرفة)، والروح ؟ والجواب أن هذه الأمور روحية معنوية ولا يمكن أن تراها العين الحسية، أو حتى يدركها العقل إلاّ من جراء أثر لها في الواقع بحيث يمكن لهذا الأثر أن يقع تحت قوى الإدراك الحسي أو العقلي للإنسان، حينئذ يستدل الإنسان منه على وجودها ويُقرِّر حقيقة هذا الوجود. وبغير هذا الأثر النابع من هذه الجواهر والذي يمكن إدراكه لا يستطيع العقل أن يُقرِّر حقيقة وجودها.

فعلى سبيل المثال مَنْ هو الذي استدل على وجود العقل بدون الأثــر الناجم عنه، أي الفكر المولود منه الذي هو شعاع نــوره ويقودنــا إليــه بالضرورة، ثم من استدل على وجود الفكر الذي هو نور المعرفــة بــدون الكلمة التي تترجمه، والتي تتجسّد في القول أو الفعل، والتي هى نور العقــل وتكشف لنا مكنونه وسرّه ؟ ومن استدل على وجود الرُّوح بدون تيار الحياة الذي يُدرَك بالحركة والنموِّ. إن أحداً في الوجود لم يرَ عقلاً و لم يرَ روحاً و لم يرَ ذكاءً أو فَهْماً إلاَّ بما يولد منها. ويظهر أثره للعيان فيستدل منه عليها.

الله لا يُرى في ذاته:

هكذا الله كعقل؛ عِلّة خالقة للوجود. أو كنور، منبع لنــور الحكمــة والفَهْم. أو كروح، يمنح الحياة. لا يمكن رؤيته في ذاته كما يؤكّد الكتــاب ذلك في قوله: "الله لم يَرَهُ أحدٌ قطّ" (يو١: ١٨)، ولن يراه أحد كما قــال لموسى قديماً: "لا يراني أحد ويعيش" (خر٣٣: ٢٠). فذات الله كــروح أو كعقل أو كنورِ فكرٍ، لا يمكن أن تظهر للبشر أو تُعلَن بنفســها للخليقــة. ويستحيل على ذات الله حاملة الكون والوجود وحاوية الزمن أن يضــمها الكون أو يحويها الزمن بظهور يُرَى أو يُحَسُّ. لذلك يظهر الله للعالم في قوّته الخارجة المولودة منه حسب جوهره كعقل ونور وروح.

المولود من الله هو طريقنا إليه:

والله كما اتّضح من هذه الجواهر الثلاثة وحدة ثالوثية، هى الــذات، والمولود، والحياة التي تتمتع بها الذات والمولود منها معاً؛ لأن الذات لا تلــد بدون حياة فيها والمولود من الله هو الذي يُظهِرُ لنا صورة الله وشخصه.

وإن كان الله عقلاً محضاً فالمولود منه هو الكلمة، وإن كان نوراً خالصاً فالمولود منه نور وإن كان روحاً فالمولود منه روح. وإن كان الله والداً هكذا فهو والد الكلمة والنور والروح. والنور المولود من الله هو نور كلمته وحكمته الأزلي ونور روحه المُحيي. وكل دين يؤمن بالله الروحي السماوي يؤمن أن له كلمة وله روح ووالد النور؛ لأن نوره يملأ السّموات من فوق ويملأ الأرض من تحت؛ لأنه جَلّت قُدرته هو نور السموات والأرض.

الله نراه في ابنه: والذي يلده العقل الإلهي هو الكلمة نوره الحقيقي الذي يحمل تيار الحياة في ذاته ويقدِّمه للعالم كله. هذا هو ابنه بالحقيقة. والكلمة هو ابن الله لأنه مولود منه. وهو الذي يمكن أن يكون الوسيط الوحيد بينه وبين خليقته. ويكون الدليل والطريق الذي به تصل خليقته إلى معرفته؛ لأنه يحمل صورته ومن طبعه وجوهره. وحيث أن الله طبيعته روحية فيكون ابنه المولود منه طبيعته روحيّة أيضاً، وحيث أن الله أزلي فابنه مولود منه منذ الأزل. ومنذ البدء الله يعمل بابنه كلمته في الخليقة (أم٨: ٣)، ولكن العالم لم يكن يعرفه كما يقول مُعلّمنا يوحنا عن الابن الكلمة: "كان في العالم، وكُوِّن العالم به، ولم يَعرفه العالم" (يو١: ١٠) بل إن العالم لم يعرف الآب أيضاً؛ لأنهم لو كانوا قد عرفوا الابن لعرفوا الآب أيضاً (يو٨: ١٩).

نراه رؤيا العين بالتجسُّد:

لذلك عندما أراد الله أن يُعلِن ذاته للعالم فيراه الناس، ويكون قريباً منهم فيعرفونه، وكان من المستحيل أن يظهر لهم بأية صورة ولو مُصغّرة أو مُبسّطة

من مجده وعظمته؛ لأنه حتى هذه الصورة المُبسّطة لا يستطيع العالم أن يتحمّلها، لذلك رتّب أن يظهر لهم في صورة مُشابهة لهم يستطيعون التعرُّف عليه من خلالها.

فلم يرَ بدأً من أن يظهر مُتجسِّداً مُتأنساً في شخص كلمته ابنه الذي هو صورته ورسم جوهره وهو واحد معه، يظهر فيه وبه في صورة محسوسة مُعلناً عن ذاته للعالم، ومُقدِّماً له كل عطايا صالحة. فما كان تجسُّد كلمة الله سوى ظهور الله في العالم في شخص المسيح، كما قال مُعلِّمنا بولس: "عظيمٌ هو سرّ التقوى الله ظَهَرَ في الجسد" (١تي٣: ١٦). ولم يكن هناك طريق غير هذا لإعلان الله عن ذاته.

المسيح الابن أعلن الله في شخصه:

وإذ برهن المسيح المولود من مريم العذراء أنه كلمة الله بالحقيقة وابنه الذي يحمل صورته للعالم، وذلك بإظهار قدرته الإلهية في أقواله وأعمال آياته وفي برِّه ومحبّته وكماله، أكّد للعالم أن الله ثالوث؛ لأنه إذ أعلن وأثبت أنه هو الابن المُتجسِّد أكّد بالضرورة حقيقة الآب الذي ولده؛ لأنه إذ كان ابناً فلابد وله أب، وإذا كان مولوداً فلابد وله والد، وولادة الآب للابن دليل لروح الحياة فيهما الذي يكون هو روحهما القدوس. وقد أكد الابن أنه يعمل بروح الله الكائن فيه عندما قال لليهود: "إن كُنتُ أنا بروح الله أُخرجُ الشياطين، فقد أَقبل عليكم ملكوت الله" (مت١٢: ٢٨).

إذاً بالابن صارت معرفة الآب والرُّوح القُدُس، وإذ ظهر الله لنا في ابنه كشف لنا به عن ذاته المُتعالية وعن روحه القدوس.

الثالوث وحده يُعطي إمكانية التجسُّد: ولو كان الله روحاً مُتفرِّداً في ذاته مُترهاً عن الثالوث، ما كان يمكن أن يُعلن ذاته للعالم أو يظهر للعالم بالتجسُّد؛ لأن ذات الله لا تتجسَّد، ولكن لأن الله له كلمة مولود منه منذ الأزل، فكلمته له خاصية التجسُّد؛ لأنه الوسيط بينه وبين العالم، إذ به خلقه وبه يعمل فيه. والله وكلمته تقوِّمهما روح الحياة. وهذا الثالوث في الله هو الذي أتاح إمكانية إعلان الله ذاته للإنسان بظهوره في العالم في شخص كلمته بالتجسُّد. ومن ثم صار إلهاً معروفاً لخليقته محبوباً منها.

فشكراً لهذا الإله الواحد في ذاته وجوهره والمُثلّث في كيانه وصورته، الذي نقلني من ظلمة الإله المجهول الذي لا يتعدّى الوهم والتصوّر ووجود ذاته في قالب لفظي ليس إلاّ، وهو لفظ (الله). إلى نور معرفة الإله الذي كرَّمني واتحد بطبيعتي بالتجسُّد لكي يُعلن لي ذاته كحقيقة مُدرَكة وملموسة، وصارت طبيعتي فيه وسيلة لي لمُعاينة مجد لاهوته. والذي لولا ثالوث كيانه الذي تتقوّم به ذاته، ما كان ممكناً أن يظهر لي لكي أراه وأعرفه عن كثب وينبني إيماني به على الحق المقبول، وهو الله الثالوث القادر على إعلان ذاته، وليس على الوهم المفروض بأن الله مُنزّه عن الثالوث، قوة مُبهمة غامضة، لا تعدو ذاته عن أن تكون إمّا ذاتاً فارغة خاوية تحتاج لمن يملؤها ليجعل لها كياناً، وإمّا ذاتاً مُصمتة جامدة لا حركة لها ولا حياة فيها وكأنها وثن.

الله الثالوث هو للعالم كله: إنه من الطبيعي جدّاً أن نستنتج من كل ما سبق أن الله العقل النور الرُّوح هو ليس إلهاً خاصاً بالمؤمنين بالمسيح وحدهم، بل لكل نفس تدرك العقل ونور الكلمة والروح. وحيث أن كل إنسان يمكنه أن يدرك هذه، إذاً الله الثالوث هو لكل إنسان في هذا العالم.

وهو أيضاً لكل نفس تؤمن بالله إلهاً روحياً، فكل نَفس نبذت عبادة الأوثان وصارت تنادي بالله الواحد السماوي، وتنادي أن الله خالق العالمين بكلمته، وأنه نور السَّموات والأرض، وأنه روح، فمن واقع مُناداتها بالله **الكلمة والنور والروح يصبح إيمانها بالله الواحد الثالوث** ضرورة حتمية لا مفرّ منها. وحيث أن عبادة الأوثان بالمعنى الحرفي قد انحصرت في قلّة قليلة جداً بين شعوب الأرض، فإذا استثنينا هذه القلّة، يصبح **الله الواحد الثالوث** عقيدة كل إنسان في هذه الخليقة. ومن ثمّ وجب أن لا تنخدع أي نفس بفكرة الإله الواحد المُنزّه عن الثالوث لبساطتها وسهولتها، وخصوصاً أننا عرفنا أنها معرفة أولية ناقصة بالله لا تكتمل إلاّ بمعرفة ثالوث الله. هذا الثالوث الذي يُعطي الله كياناً حقيقياً حيّاً فاعلاً مقبولاً لدى العقل والقلب. هذا الإله الواحد الثالوث الذي فيه ومنه كل البركات والنِّعم والمحبة الإلهية، وهو وحده الإله الخالق ولا خالق غيره. مما يستوجب تسبيح وتمجيد الله الواحد، الإله الثالوث. إذاً، سبحي يا نفسي الله الواحد الثالوث الإله الحقيقي وباركيه الآن وكل الدهور.

استدراك ختامي
عن الله الثالوث العقل والنور والروح

نقص المعرفة وضرورة الإيمان: إن كل هذه الإيضاحات قد جعلت **الله الواحد في ذاته والثالوث في كيانه** حقيقة لامعة أمام عقولنا وقلوبنا مما يوطّد جذور إيماننا في أعماق نفوسنا، فنصمد أمام كل الأفكار المُضادة والمقاومة التي يتبناها كل مَنْ فَقَد الاستعداد لفَهْم أقوال الإنجيل فَهْماً سليماً مُتكاملاً، أو مَنْ يتعثّر في فَهْم وقَبول حقيقة الثالوث في الله، أو مَنْ يُخيّم عليه الانغلاق الفكري فلا يريد أن يفهم غير ما يفهمه هو، أو يكون قد تسمّم فكره ضدّ العقيدة المسيحية.

إنّ حقيقة الإيمان بالله الواحد في ذاته والثالوث في كيانه، عقيدة انحدرت إلينا من آبائنا وجدودنا، ومن الإنجيل وحي الله ومن تعليم الكنيسة التي سلّمتنا أصول الإيمان.

ولا شك أن الإيضاحات السابقة بركة كبيرة لتقوية إيماننا بالحقائق الإلهية المُعلَنة لنا. ولكن لئلاّ يتصوّر أحد أننا وضعنا الله تحت أنظارنا أو استطعنا أن نحويه داخل عقولنا، نستدرك فنقول إن الله سيظل عالياً جدّاً أمام العقل بجلاله وجماله ورهبة أسراره؛ لأن جوهره يسمو جداً على عقولنا وإدراكنا ولا نستطيع أن نحدّه أو نفهمه. ولا يجب أن نستغرب من قصور معرفتنا به؛ لأنه إذا كانت جواهر العقل والنور والروح القريبة إلينا تعلو أيضاً على فكر الإنسان، ونجد أنفسنا عاجزين عن إدراك كُنْه جوهرها مهما استدللنا على حقيقة وجودها من تأثيراتها في حياتنا، ومهما تأكّدنا من حقيقة وحدانية ذاتها وثالوث كيانها من صورها التي نستدل عليها بعقولنا، فكم بالحري جوهر الله ذاته !

نعم إننا عندما نستدل على وحدانية الذات وثالوث الكيان لهذه الجواهر، تصبح هذه هي حقيقة جوهر الله الذي ارتبط بها، وتكون حقيقة الله الواحد الثالوث من الجهة المنطقية والدينية سليمة من الناحية الشكلية. أمّا من ناحية الموضوع فبقدر ما سمحت به معرفتنا التي كما هي قاصرة إزاء الجواهر المعروفة لنا فكذلك أيضاً إزاء جوهر الله. بل إن هذه هي طبيعة الإيمان كما يقول مُعلّمنا بولس: "الإيمان هو الثّقة بما يُرجَى والإيقان بأُمور لا تُرى" (عب١١: ١).

تكمُل معرفتنا بالله في الأبدية:

لذلك مع إيماننا الراسخ بالله الواحد الثالوث حسب ما أعلنه لنا، وحسب ما أمَّن عليه أيضاً منطقنا العقلي. فمع إيماننا هذا نقرِّر أنّ علْمَنا بالله هنا على الأرض ناقص ومعرفتنا به كمعرفة الأطفال. وسوف لا تكمُل معرفتنا بالأمور الإلهية والسماوية إلاَّ عندما نُعاين الله في ملكوته كما يقول مُعلّمنا بولس: "لأننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبُّؤ. ولكن متى جاء الكامل فحينئذٍ يُبطل ما هو بعضٌ. لما كنت طفلاً كطفل كُنتُ أتكلّم، وكطفل كُنتُ أفطن، وكطفلٍ كُنتُ أفتكر. ولكن لما صرتُ رَجُلاً أبطلتُ ما للطفل. فإننا ننظر الآن في مرآةٍ، في لُغز، لكن حينئذٍ وجهاً لوجه. الآن أعرفُ بعض المعرفة، لكن حينئذٍ سأعرفُ كما عُرِفْتُ. أمَّا الآن فيثبُتُ: الإيمان والرَّجاء والمحبَّة" (١كو١٣: ٩-١٣).

وكما لا أحد يستطيع أن يدّعي المعرفة الكاملة بالله لأننا لا نستطيع أن نعرف عنه إلاَّ في حدود إعلاناته لنا. وهو لا يَطلب منا أكثر من الإيمان بما أعلنه لنا كما قيل: "آمن بالرّب يسوع المسيح فتخلُص" (أع١٦: ٣١).

لذلك فمهما عمل الإنسان وعَلِمَ بدون إيمان لا يجني شيئاً لأنه كما يقول: "بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه" (عب١١: ٦). ومَنْ لا يؤمن فهو يضع نفسه تحت دينونة الله لأن "مَنْ آمن واعتمد خَلَصَ، ومَنْ لم يؤمن يُدَن" (مر١٦: ١٦).

ثبات حقيقة الثالوث في الله:

وإن كان الله قد أعلن لنا ذاته واحداً في ثالوث، فإن ما اتضح لنا في هذا الاستدراك الختامي من نقص ومحدودية معرفتنا بكُنْه الله وجوهره، لا يعتم إطلاقاً على حقيقة الله الواحد الثالوث ولا يُقَلِّل من يقينها، بل يظهرها بالأكثر مُضيئة مثل النور، وحيَّة مثل الرُّوح، ويقينية يقين البديهيات والمسلّمات؛ لأن الله هو الذي أعلنها لنا، وهو الذي قدَّم لنا إمكانيات قبولها، وجعلها أساساً للإيمان به إلهاً كاملاً في صورته وكيانه، مُكتفياً بذاته، مصدراً لنور الحب، وقوة روح الحياة، وموهبة النطق والتعقُّل في خليقته.

وجوب الإيمان:

فوجَب علينا أن نؤمن بها، غير غافلين عن أن الإيمان بالله مُجرَّداً عن الثالوث هو إيمان بإله عاجز أجوف وأبكم وشبيه بالأموات. وقديماً قال أحد فلاسفة اليونان "إن كان إنكار وجود الله جريمة، فالجريمة الأشنع الإيمان بإله عاجز".

فلنتيقّظ إلى نعمة إيماننا بالله الثالوث حتى لا نخسر أمجادنا الأبدية المكنوزة لنا فيه، غير مُنكرين وسائل معرفته التي وفّرها لنا بمحبّته. فلنشكره ونمجّده إلى الأبد.

الفهـرس

ص

يُطلَب من:

مكتبة كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس ـ الحضرة ـ الإسكندرية.

ت: ٤٢٧٨٣٥٩ ٠٣ & ١٧٩٨٧٤١ ٠١٢